

رَفَعُ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ النَّجْدِيُّ
(أَسْكَنَ الْبَيْتَ الْكَرِيمَ)

الْأَشْعَرِيَّةُ

فِي مِيزَانِ الْأَشَاعِرَةِ
الجزء الأول



تأليف الشيخ الدكتور
شاكِر بن توفيق العاروري

طبعة جديدة منقحة

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

المشعرية في ميزان الأشاعرة

الجزء الأول

تأليف الشيخ الدكتور
شاكر بن توفيق العاروري

طبعة جديدة منقحة

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
السنة الأولى الفروع

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠١١/٤/١٤٧٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

مقدمة الطبعة الثانية

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مِنْ يَهْدِ اللَّهِ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: ٧١، ٧٠].

إن مما أوجه الله تبارك وتعالى على أهل الملة من أهل الإسلام دعوة الخلق إلى عبادة الخالق والتعريف به من خلال ما جاء في الكتاب والسنة؛ ليكون الخلق على بصيرة من أمر دينهم والواجب عليهم في أمر معتقدهم كما قال في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝﴾ [يوسف: ١٠٨].

ولما حاد الناس عن هذا السبيل البين والطريق الحق بذرائع ودعاوى ليس عليها بينات كان لزاماً على أهل السنة الذبُّ عن الوُحْيِ وبيان الدخيل والتحذير منه ومحاربتة وتنقية الدين من الشوائب التي علقت في أذهان الناس على مرِّ الزمان؛ فكان هذا الجهد جزءاً من تلك المواجهة اللازمة لتلك المذاهب والأفكار التي يحاول بعض الناس ترويجها على أنها وحيٌّ من عند الله والدين الواجب اتباعه.

فلزم تحرير هذه الدعوى وبيان وهائها بعرضِ أقوالٍ خاصَّةٍ أربابها وتغليط بعضهم بعضاً ورد بعضهم أقوال بعض، مما يظهر لك اختلال الآراء وتضاربها، لتخلص أيُّها

القاريء بأن هذه الأقوال لا تعدو كونها آراء رجال تقبل الصواب والخطأ والقبول والرد، وما كان هذا حاله وواقعه لا يمكن أن يكون وخياً ولا منهجاً نبوياً ولا ديناً متبعاً، ولا يعدوا كونه اجتهدا بذل أهله الجهد في البحث عن الحق فيما بدا لهم، فهم وإن عذروا بعدما أفضوا إليه، لكن مَنْ بعدهم من الناس لا يُعَدُّ معذوراً وهو قادر على الرجوع إلى الحق والالتزام به.

وقد حرصت في هذه الطبعة على استدراك ما كان في الطبعة الأولى من سقط وأخطاء مطبعية، إذ يبذل المرء جهده في إخراج ما يكتب على أفضل وجه يراه ويظهر له، وهو مع كل هذا يفوته ما يفوته من السقط ويبقى بعض الغلط، وما دور الأخ المحب إلا النصيح لإتمام ما فات، ورحم الله أخاً أسر إلي عيباً وأعان على إتمام ما بدا له فيه سهو أو غلط. وليعلم القارئ الكريم أنه لم يكن قصدي في هذا الجزء الاسترسال في شرح أقوال القوم وبيان تفاصيل العوارض والتعارض فيها، بل ذكرت ذلك على باب الترتيب والإشارة إليه؛ ليُعمِلَ كُلُّ قارئ ذهنه واجتهاده في النقول وتدبرها وليقف على الوجه المطلوب منها، فإن قصرت النظرة وتعذر الوصول إلى المطلوب فليكن ثمة نظرة بعد أخرى وتدبر بعد تفكير لتحصيل مفاد العبارة، وقد اكتفيت بالإشارة دون التفصيل بالعبارة؛ لأن لنا مع أتباع المذهب واجتهاداتهم في الجمع بين النقول موقف لا بد منه بعد إن شاء الله.

سائلاً الله تبارك وتعالى أن يتقبل العمل وأن يكون خالصاً في نصره الدين القويم والعقيدة النقية الصافية.

وكتب الشيخ الدكتور:

شاكر بن توفيق العاروري

الأربعاء ١٩ شعبان ١٤٣٢هـ

٢٠ تموز ٢٠١١م

المقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ وَأَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا.
وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ.
أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كَلَامُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.
إِنَّ الْعَقِيدَةَ هِيَ الرُّكْنُ الْإِيمَانِيُّ الْوَثِيقُ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ، وَإِنْ الْخَوْضُ فِيهِ بِلَا بَيِّنَةٍ شَرْعِيَّةٍ أَوْ عِلْمٍ رَبَانِيٍّ قَائِمٍ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ضَلَالٌ وَحِيدَةٌ عَنِ الْوَحْيِ، فَكَيْفَ إِذَا تُرِكَ الْأَسْتِرْشَادُ بِفَهْمِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، الَّذِينَ مَدَحَهُمُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ، وَمَدَحَ كُلِّ مَنْ اتَّبَعَ مَسَائِلَ الْإِيمَانِ الَّتِي يَجِبُ فِيهَا التَّسْلِيمُ وَالْإِتِّبَاعُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَا آخِرَةَ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤، ٥].

وَلَمَّا لَمْ يَمَثَلْ بَعْضُ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ أَمْرَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْإِتِّبَاعِ، وَخَاضُوا فِيهَا تُهْوَاهُ عَنْهُ فِي مَسَائِلِ الْغَيْبِ بِلَا عِلْمٍ رَبَانِيٍّ، وَلَا سُنَّةِ نَبَوِيَّةٍ، آخِذِينَ مَسَائِلَ الْإِيمَانِ بِالْعُقُولِ الْفَاسِدَةِ، وَالْآرَاءِ الْكَاسِدَةِ، لَزِمَ بَيَانُ مَا وَقَعَ بِهِ بَعْضُ هَؤُلَاءِ الْمُخَالَفِينَ لِأَقْوَالِ بَعْضِهِمْ، وَتَبَايُنُ مَذَاهِبِهِمْ فِي أَصُولِهِمْ، نَاهِيكَ عَنِ الْفُرُوعِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى تِلْكَ الْأَصُولِ، وَبَيَانُ اضْطِرَابِهِمْ فِيهَا.
فَانْتَقَيْتُ بَعْضًا مِنْ تِلْكَ الْمَسَائِلِ الرَّئِيسَةِ، أَذْكَرُ فِيهَا أَقْوَالُ كِبَارِ عُلَمَائِهِمْ وَعُمَمَائِهِمْ سَارِدًا مَذَاهِبَهُمْ وَأَقْوَالَهُمُ الَّتِي تُبَيِّنُ اخْتِلَافَهُمْ وَتَفَاوُتَهُمْ فِي الْمَسْأَلَةِ الْوَاحِدَةِ، مَعَ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ اتِّبَاعَ مَذْهَبٍ وَاحِدٍ فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ، مِمَّا زَادَ الْفَجْوَةَ بَيْنَ أَتْبَاعِهِمْ، وَتَبَدُّعَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، بَلْ قَدْ يَصِلُ الْأَمْرُ إِلَى تَكْفِيرِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا عَلَى مَا سَيَأْتِي فِي مَكَانِهِ.

ولم أجعل غرض كتابي تتبع أقوال بعضهم في بعض من حيث التبديع والتفسيق وغيره، بل المراد بيان مذهبهم، وتعدد أقوالهم في المسألة الواحدة على باب التضاد والاختلاف؛ ليعلم كل باحث عن الحق حال كل من خالف الكتاب والسنة، والحال كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وإنَّما القصدُ هنا إبطال بعضهم لقول بعض، فإنَّ هذا يؤنسُ نفوساً كثيرةً قد تتوهم أنَّه ليس الأمرُ كذلك) (١).

وقد صامَ قلبي عن التفسير والتعبير لأقوالهم، وحصنته من الولوج في بيان عوار مذهب القوم عند أهل السنة أصحاب الحديث السائرين على منهج النبوة والقرون الفاضلة.

وقد أرجئت عدداً من المسائل والمباحث قريباً مما كتبت، سائلاً الله تبارك وتعالى أن يُعِينَ على بيان تفصيله وترتيبه.

فالحمد لله على توفيقه، وأسأله أن يجعل ما قمتُ به وأقومُ خالصاً لوجه الكريم، ونصرةً لعقيدة الموحدين أهل السنة أصحاب الحديث.

راجياً أن يكون ما كتبتُ تمةً لما سبق من كتابي (منهج السلف في الأسماء والصفات) ليكون كالذي سبق من مكتوب أهل العلم في بابيه، معيناً لأجيال الأمة على الاتباع، ونبيذ كل ما خالف الوحيين ومنهج السلف الصالح رضوان الله عليهم.

وحالنا جميعاً الانصياع لقول المولى تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّ لَكَ فَأْدَعٌ وَسَتَقِمُ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَنْفَعُ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

ومطيعين في ظاهرنا وباطننا لأمره سبحانه، وتلهجُ ألسنتنا بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

واعلم يرحمك الله أن مضمون هذا الكتاب ونواته قد بدأتُ بها عام ١٤٠٩هـ، وقد حال بين تتمته إلى هذا الوقت أقدار حتى قدر الحقُّ تبارك وتعالى إخراجه على الوجه الذي ستري، كتاب مختصر مليح ينبي عن واقع علمي بإسلوب زكي فصيح، راجياً من الله تعالى النفع به.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مصدر التلقي عند الأشاعرة

إِنَّ القانون الكلي الذي يتحاكم إليه الأشاعرةُ قانون ابتدعوه وألفوا قواعده وفرعوا فروعه وأبطلوا خلافه، فجعلوا ما زرعَتْ نفوسهم وحصدت عقولهم وأفهامهم قانوناً ربُّوا عليه كفرَ من حادَّ عنه، وتضليلَ من تنكَّب سبيله، وهلاكَ من لم يرجع إليه.

فجعلوا من العنديات طريقَ فلاح، دون اعتبار للمضابط الشرعي الذي لم يجعل لكلِّ ما خالفه وزناً أو اعتباراً؛ فيها هو الرازيُّ يذكر في كتابه أساس التقديس قوله: (اعلم أنَّ الدلائل العقلية إذا قامت على ثبوت شيء ثم وجدنا أدلةً نقليَّةً يُشعرُ ظاهرها بخلاف ذلك، فهناك لا يخلو الحال من أحد أربعة أمور:

إمَّا أَنْ يَصْدُقَ مُقتضى العقل والنقل، فيلزمُ تصديقُ النقيضين، وهو محال.

وإمَّا تكذيبُ الظواهر النقليَّة وتصديقُ الظواهر العقلية.

وإمَّا تُصَدَّقُ الظواهر النقليَّة وتكذبُ الظواهر العقلية، وذلك باطل.

لأنَّه لا يمكننا أن نعرفَ صحَّةَ الظواهر النقليَّة إلا إذا عرفنا بالدلائل العقلية إثبات الصانع وصفاته وكيفية دلالة المعجزة على صدق الرسل وظهور المعجزات على يد محمد ﷺ.

ولو صارَ القدحُ في الدلائل العقلية القطعية صار العقلُ متَّهماً غيرَ مقبول القول، ولو كان كذلك لخرج عن أن يكونَ مقبول القول في هذه الأصول، وإذا لم تثبت هذه الأصول خرجت الدلائل النقليَّة عن كونها مفيدة.

ولما كان العقلُ أصلاً للنقل ثبت أنَّ القدحَ في العقل لتصحیح النقل يُفضي إلى القدح في العقل والنقل معاً، وهذا باطل.

ولما بطلت الأقسام الأربعة لم يبق إلا أن يقطعَ بمقتضى الدلائل العقلية القاطعة بأنَّ هذه الدلائل النقليَّة إمَّا أَنْ يُقالَ أنَّها غيرُ صحيحةٍ إلا أَنْ يُقالَ أنَّها صحيحةٌ وأنَّ المراد منها غيرُ ظواهرها.

ثم إن جَوَزْنَا التَّأْوِيلَ اشْتَغَلْنَا عَلَى سَبِيلِ التَّبَرُّعِ بِذِكْرِ تِلْكَ التَّأْوِيلَاتِ عَلَى التَّفْصِيلِ، وَإِنْ لَمْ نَجُوزْ التَّأْوِيلَ فَوَضَّعْنَا الْعِلْمَ بِهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَهَذَا الْقَانُونُ الْكُلِّيُّ الْمَرْجُوعُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْمِثَالِيَّاتِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ^(١).

مِمَّا تَقَدَّمَ يَظْهَرُ لَكَ أَنَّ الْعَقْلَ قَاضٍ عَلَى النَّصِّ عِنْدَ الرَّازِيِّ إِذَا اسْتَشْكَلَ الْعَقْلُ شَيْئًا مِنَ النَّصِّ، وَهَذَا الْقَانُونُ الْكُلِّيُّ قَدْ سَبَقَ إِلَيْهِ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ، وَقَدْ أَصَلَ لِهَذَا الْقَانُونِ فِي كِتَابِهِ الْاِقْتِصَادِ فِي الْاِعْتِقَادِ فَقَالَ: (وَأَمَّا مَا قَضَى الْعَقْلُ بِاسْتِحَالَتِهِ فَيَجِبُ فِيهِ تَأْوِيلٌ مَا وَرَدَ السَّمْعُ بِهِ، وَلَا يَتَصَوَّرُ أَنْ يَشْمَلَ السَّمْعُ عَلَى قَاطِعٍ مُخَالَفٍ لِلْمَعْقُولِ، وَظَوَاهِرُ أَحَادِيثِ التَّشْبِيهِ أَكْثَرُهَا غَيْرُ صَحِيحَةٍ، وَالصَّحِيحُ مِنْهَا لَيْسَ بِقَاطِعٍ؛ بَلْ هُوَ قَابِلٌ لِلتَّأْوِيلِ، فَإِنْ تَوَقَّفَ الْعَقْلُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَلَمْ يَقْضِ فِيهِ بِاسْتِحَالَةٍ وَلَا جَوَازٍ وَجِبَ التَّصْدِيقُ أَيْضًا لِأَدْلَةِ السَّمْعِ، فَيَكْفِي فِي وَجُوبِ التَّصْدِيقِ انْفِكَائُ الْعَقْلِ عَنِ الْقَضَاءِ بِالْإِحَالَةِ، وَلَيْسَ يُشْتَرَطُ اسْتِعْمَالُهُ عَلَى الْقَضَاءِ لِتَجْوِيزِهِ، وَبَيْنَ الرَّتْبَتَيْنِ فَرْقٌ رَبِّمَا يَزُلُّ ذَهْنُ الْبَلِيدِ حَتَّى لَا يُدْرِكَ بَيْنَ قَوْلِ الْقَائِلِ: أَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْرَ جَائِزٌ، وَبَيْنَ قَوْلِهِ: أَنَّهُ مُحَالٌ أَمْ جَائِزٌ، وَبَيْنَهُمَا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، إِذِ الْأَوَّلُ جَائِزٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالثَّانِي غَيْرُ جَائِزٍ؛ فَإِنَّ الْأَوَّلَ مَعْرُفَةٌ بِالْجَوَازِ، وَالثَّانِي عَدَمُ مَعْرُفَةٍ بِالْإِحَالَةِ، وَوَجُوبُ التَّصْدِيقِ جَائِزٌ فِي الْقَسْمَيْنِ جَمِيعًا، فَهَذِهِ هِيَ الْمَقْدَمَةُ)^(٢).

وَيَظْهَرُ مِنْ جَوْهَرِ النَّصِّ مَفَارِقَةُ الْقَانُونِ التَّأْوِيلِيِّ عِنْدَ كِلَا الْأَشْعَرِيِّينَ بِوُجُودِ مَفَارِقَتَيْنِ أَصِيلَتَيْنِ:

الْأُولَى: تَقْرِيرُ الْغَزَالِيِّ أَنَّ الظَّوَاهِرَ النُّقْلِيَّةَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَخَالَفَ قَاطِعَ الْمَعْقُولِ. أَمَّا الرَّازِيُّ فَإِنَّهُ يَبْثُثُ إِمْكَانِيَّةَ التَّعَارُضِ بَيْنَ الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ، وَعِنْدَهُ فِي مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ وَجُوبُ تَقْدِيمِ الْعَقْلِ.

الثَّانِيَّةُ: يَبْثُثُ الْغَزَالِيُّ أَنَّ الْعَقْلَ قَدْ يَتَوَقَّفُ فِي الْحُكْمِ عَلَى نَصِّ وَالْقَضَاءِ بِهِ لِعَجْزِهِ، فَلَا يَقْضِي بِاسْتِحَالَةٍ وَلَا جَوَازٍ لِحَيْثَرِهِ وَعَدَمُ تَبَيُّنِهِ؛ فَيَقُولُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ: (وَجِبَ التَّصْدِيقُ

(١) (ص ١٧٢).

(٢) (١٧٩-١٨٠).

أيضاً لأدلة السمع، فيكفي في وجوب التصديق انفكاك العقل عن القضاء بالإحالة، وليس يُشترط استعماله على القضاء لتجويزه).

أمّا الرازي فلم يرَ جوازَ توقفِ العقل في شيء من السمعيات؛ وذلك لأنه الأصل والقاضي على كلِّ وارد، وأنَّ إنزاله منزلة المتوقف يُعتبرُ قدحاً فيه، وهذا باطلٌ عنده.

أمّا القانون الكليُّ عند أبي الحسن الأشعريِّ فقد صرَّح به في كتاب الإبانة عن أصول الديانة فقال: (ونصدِّق بجميع الروايات التي يثبتها أهلُ النُّقل: من النزول إلى السماء الدنيا، وأنَّ الرب عز وجل يقول: هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر، وسائر ما نقلوه وأثبتوه، خلافاً لما قاله أهلُ الزيغ والتضليل.

ونعوِّل على ما اختلفنا فيه على كتاب ربنا تبارك وتعالى، وسنة نبيِّنا ﷺ، وإجماع المسلمين، وما كان في معناه، ولا نبتدعُ في دين الله، ولا نقول على الله ما لا نعلم^(١)).

واعلم أنَّ من أسباب وضع القانون الكليِّ عند الأشاعرة ما قاله السنوسيُّ في شرح الكبرى كما نقله عنه الدكتور سفر في كتابه منهج الأشاعرة في العقيدة؛ قال السنوسيُّ: (وأما من زعم أنَّ الطريقَ إلى معرفة الحق الكتاب والسنة ويحرِّم ما سواهما فالردُّ عليه أنَّ حُجَّتَيْهِمَا لا تعرف إلا بالنظر العقلي، وأيضاً فقد وقعتَ فيهما ظواهرٌ مَن اعتَقَدَها على ظاهرها كفرَ عند جماعةٍ وابتدع^(٢)).

وقال: (أصولُ الكفرِ ستة ... سادساً: التمسُّكُ في أصول العقائد بمجرد ظواهر الكتاب والسنة من غير عرضها على البراهين العقلية والقواطع الشرعية).

قلتُ: إنَّ الحكمَ بكفرٍ من توقف على ظاهر النص ولم يتجاوزَه مجازفةً عظيمةً، وجرأةً كبيرةً، وتقولُ على الله ورسوله ﷺ بلا بينة، فمن أين له بهذا الأصل؟

واعلم أنَّ هذه المقولة الجائرة سببها الانحرافُ عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إذ لو كان الالتزام بظاهر الوحي الذي فيه هدىً ونورٌ يهدي الله به جميع خلقه كفرٌ وضلالٌ، فأين سيكون الإيمان والهدى والحق والتوحيد؟! أفي كلام البشر وآراء الخلق؟! تلك إذاً

(١) (ص ٦٠).

(٢) (ص ٣٤).

قسمة ضيزى.

وإليك رد الغزالي على السنوسي وأمثاله ممن ذهب إلى مثل مذهبه، إذ قال في فيصل التفرقة: (فإذا فهمت أن النظر في التكفير موقوف على جميع هذه المقامات التي لا يستقل بأحاديها المبرزون علمت أن المبادر إلى تكفير من يخالف الأشعري أو غيره جاهل مجازف)^(١).

إن مقولة السنوسي واستنتاجه تأصيل لا يقوم على كتاب الله ولا على سنة نبيه ﷺ، بل هو مناقض للكتاب والسنة، ولن أعرج عليه كثيراً، بل سأكتفي بقول أحد مراجعهم، وعلم من أعلام مذهبهم، وهو يردُّ على مثل هذه الترهات الزائفة الباطلة، وذلك بما قاله الغزالي في كتابه فيصل التفرقة: (فأما أنت إن أردت أن تتزع هذه الحسكة من صدرك، وصدر من هو في حالك، ممن لا تحركه رواية الحسود، ولا تقيده عماية التقليد، بل تعطشه إلى الاستبصار لحزاة إشكال أثارها فكرٌ، وهيجهما نظراً، فخطب نفسك وصاحبك بحد الكفر، فإن زعم أن الكفر ما يخالف مذهب الأشعري، أو مذهب المعتزلي، أو مذهب الحنبلي، فاعلم أنه غرٌ بليد، قد قيده التقليد، فهو أعمى من العميان، فلا تضيع بإصلاحه الزمان، وناهيك حجة في إقحامه مقابلة دعواه بدعوى خصومه، إذ لا يجد بين نفسه وبين سائر المقلدين المخالفين له فرقاً وفصلاً، ولعل صاحبه يميل من سائر المذاهب إلى الأشعري، ويزعم أن صاحبه في كلٍّ وردٍ وصدر كفر من الكفر الجلي، فأسأله من أين ثبت له أن يكون الحق وقفاً عليه حتى قضى بكفر الباقلاني إذ خالفه في صفة البقاء لله تعالى، وزعم هو أنه ليس وصفاً لله تعالى زائداً على الذات، ولم صار الباقلاني أولى بالكفر بمخالفته الأشعري من الأشعري بمخالفته الباقلاني؟ ولم صار الحق وقفاً على أحدهما دون الثاني؟)^(٢).

ونزيد هؤلاء المتشدقين بما حكاه الأشعري الذي يتسبب إلى مذهبه؛ فقد قال في كتاب الإبانة: (ونصدق بجميع الروايات التي يثبتها أهل النقل: من النزول إلى السماء الدنيا،

(١) (ص ١٥٠).

(٢) (ص ١٢٥).

وأن الرب عز وجل يقول: هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفر له، وسائر ما نقلوه وأثبتوه خلافاً لما قاله أهل الزيغ والتضليل^(١).

وحكى الإمام الشاطبي رحمه الله رداً على أرباب العقول الفاسدة الكاسدة في الاعتصام فقال: (النوع الثالث: أن الله جعل للعقول في إدراكها حداً تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك في كل مطلوب، ولو كانت كذلك لاستوت مع الباري تعالى في إدراك جميع ما كان وما لا يكون؛ إذ لو كان كيف كان يكون؟ فمعلومات الله لا تنتهي، ومعلومات العبد متناهية، والمتناهي لا يساوي اللامتناهي)^(٢).

ونعزُّ ذلك بكلام للإمام ابن القيم رحمه الله في الصواعق المرسلة إذ قال في الوجه الثاني والأربعين: (إن المعارضين بين العقل والنقل الذي أخبر به الرسول ﷺ قد اعترفوا بأن العلم بانتفاء المعارض مطلقاً لا سبيل إليه؛ إذ ما من معارض نفسه إلا ويحتج بها يكون له معارض آخر، وهذا مما اعتمد صاحب العقول، وجعل السمعيات لا يُحتج بها على العلم بحال. وحاصل هذا أننا لا نعلم ثبوت ما أخبر به الرسول ﷺ حتى نعلم انتفاء ما يعارضه. ولا سبيل إلى العلم بانتفاء المعارض مطبقاً لما تقدم. وأيضاً فلا يلزم من انتفاء العلم العلم بالمعارض. ولا ريب أن هذا القول أفسد أقوال العالم، وهو من أعظم أصول أهل الإلحاد والزندقة، وليس في عزل الوحي عن رتبته أبلغ من هذا)^(٣).

وقد حكى الإمام الغزالي قريباً من هذا في رده على منكري البعث بعقولهم، وإيجابهم للعقل معرفة الله عز وجل، وكيفية شكر نعمه، دون حاجة للشرع؛ فقال في الاقتصاد في الاعتقاد: (ندعي أنه لو لم يرد الشرع لما كان يجب على العباد معرفة الله وشكر نعمته خلافاً للمعتزلة حيث قالوا: إن العقل بمجرده موجب)^(٤).

ثم دُلَّ على بطلان هذا القول وفساده بوجوه عدة؛ منها قوله: (فإن قيل: فقد رجع إلى أن العقل هو الموجب من حيث أنه بسمع كلامه ودعواه يتوقع عقاباً فيحمله العقل

(١) (ص ٦٠).

(٢) (٣١٨/٢).

(٣) (ص ٧٤).

(٤) (ص ١٦٠).

على الحذر، ولا يحصل إلا بالنظر، فيوجب علينا النظر.

قلنا: الحق الذي يكشف الغطاء في هذا من غير اتباع وهم وتقليد أمر هو أن الوجوب كما بآن عبارة عن نوع رجحان في الفعل، والموجب هو الله تعالى؛ لأنه هو المرجح، والرسول مخبر عن الترجيح، والمعجزة دليل على صدقه في الخبر، والنظر سبب في معرفة الصدق، والعقل آلة النظر لفهم معنى الخبر، والطبع مستحث على الحذر بعد فهم المحذور بالعقل، فلا بد من طبع يخالفه العقوبة للدعوة ويوافقه الثواب الموعود ليكون مستحثاً، ولكن لا يستحث ما لم يفهم المحذور ولم يقدره ظناً أو علماً، ولا يفهم إلا بالعقل والعقل لا يفهم الترجيح بنفسه بل بسماعه من الرسول، والرسول لا يرجح الفعل على الترك بنفسه بل الله هو المرجح والرسول مخبر).

ثم قرر ذلك في الباب الثاني في بيان وجوب التصديق، وجعل له مقدمة وفصلين، وحكى قولاً في حال قضاء العقل باستحالة شيء ورد به السمع بالتأويل أو التوفيق، وهذا فيه رد على الرازي في هذا الباب من وجهين:

الأول: أن التأويل عند الغزالي أصل في حالة وجود الضدين في ظاهر الأمر، لا أن الاشتغال به على سبيل التبرع كما يزعم الرازي.

الثاني: أن العقل إذا عجز عن إدراك مرامي الشرع في نص ما فإنه يسلم له ولا يتمحك برده ورفضه كما فعل الرازي.

واعلم رحمك الله أنه لا يوجد أي تعارض حقيقي بين صريح المنقول وصريح المعقول، وإنما تزول الأفهام البليدة عن فهم مقاصد الشرع ووضوح النص، فتلجأ إلى التحريف، ظانّة أن في ذلك السلامة والحق.

إن مبدأ هذا الفهم وتصدر هذا الرأي أدى بهم إلى الحيرة والارتباب، وعُيِبَ عنهم عظمة التفكير وحسن التدبر، فتأهوا في غياهب الشك، وأكثروا الجدل بلا أسنة شرعية، ولا أسلحة قوية، فأفضى بهم الخلاف إلى المراء في كثير من المسائل بغير وجه حق، وخلاصة هذا البيان ما حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه موافقة صريح المنقول لصريح المعقول: (فإذا كان فحول النظر وأساطين الفلسفة الذين بلغوا من الذكاء

والنظر إلى الغاية وهم ليلهم ونهارهم يكدحون في معرفة هذه العقليات ثم لم يصلوا فيها إلى معقول صريح يناقض الكتاب بل إما إلى حيرة وارتباب وإما إلى اختلاف بين الأحزاب فكيف غير هؤلاء ممن لم يبلغ مبلغهم في الذهن والذكاء وعرفة ما سلکوه^(١).

وبذا تعلم أن لزوم النصّ نجاة؛ إذ أن تحارات العقول واجتذاب الأهواء سبيل التهلكة وسوء المنقلب، ما لم يتغمّد الله أربابها بعفوه ورحمته، والزم قول الله تعالى: ﴿مَا آفَأَهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

إذ هذا ما التزمه أهل الحق وكبار الرجال من أهل العلم المعتدّ بهم عندهم كما سبق ذكره من تصريح الإمام أبي الحسن الأشعري رحمه الله عن قانونه الكلي في كتابه الإبانة عن أصول الديانة: (ونعول على ما اختلفنا فيه على كتاب ربنا تبارك وتعالى، وسنة نبينا ﷺ، وإجماع المسلمين، وما كان في معناه، ولا نبتدع في دين الله بدعة لم يأذن الله بها، ولا نقول على الله ما لا نعلم)^(٢).

(١) (١٣٤/٢).

(٢) (ص ٦٠ رقم ٣١).

الأشاعرة والعقل

إنَّ هذا المبحثَ الخطيرَ قد أسهبَ أهلُ السنة والجماعة أهلُ الحديث في الردِّ على الأشاعرة ومن وافقهم فيه، إذ إنَّ الأشاعرة جعلوا من العقل الحاكِمَ المطلقَ على النصوص، وأبطلوا كلَّ ما توهموا أنَّه يعارضه، وقالوا أنَّ النقلَ المخالفَ للعقل ليس بوحى ولا دين.

وقد ألَّفَ شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كتاب درء تعارض العقل والنقل رداً على مثل هذه الدعوى، بل هو من أوسع الكتب التي أظهرت عوارِ القوم وفسادَ مذهبهم. إنَّ المرادَ هنا بيان مذهبهم على وجه الإجمال لا التفصيل ومن خالفهم من بني جلدتهم بذلك.

أمَّا البغداديُّ فقد جعل صحة الرواية وقبولها انسجامها مع العقل وتجويزه لمثل ذلك المتن وإلا فهو مردود.

والغزاليُّ جعل من قبول الرواية تجويزَ العقل لها وعدم حكمه باستحالتها كما تقدَّم^(١). أما الرازيُّ فقد وضع القانونَ الكليَّ في حال تعارض العقل مع النقل. أما البغداديُّ فقد قال في أصول الدين: (وأمَّا أخبارُ الأحاد الموجهة للعمل دون العلم فالواجب العمل بها شروط: أحدها: اتصال الإسناد.

والشرط الثاني: عدالة الراوي، فإن كان في روايته مبتدع في نحلته، أو مجروح في فعله، أو مدلس في روايته، فلا حجة في روايته.

والشرط الثالث: أن يكونَ متن الخبر مما يجوزُ في العقل كونه، فإن روى الراوي ما يحيله العقل ولم يحتمل تأويلاً صحيحاً فخبيره مردود.

وإن كان ما رواه الثقة يروع ظاهره في العقول، ولكنه يحتمل تأويلاً يوافق قضايا

العقول قَبِلْنَا روايته وتأولناه على موافقة العقول^(١).

إنَّ النَّاظِرَ في كلام البغدادي في رد النصوص أو قبولها موافقتها للعقل وعدم ترويعه، وهذا التأصيل العِنْدِي الذي لا يقوم على أساس شرعي، بل ليس له ضابط ينضبط به، إذ أنَّ كُلَّ عاقل يَجُوزُ عقله ما لا يَجُوزُه غيره.

وقد يدرك عقل ما لا يدركه غيره، وما استنكره عقل جَوَزه آخر وألِفَه وقبله. وحقيقة الحال أنَّ العقلَ يعجز عن إدراك الغيبات وتصورها ليقرر لها واقعاً متصوراً على باب التأويل، بل يجب انضباطه بالسمع والوحي وعدم تجاوزه. إذ مصدرُ الغيبِ الوحيُّ، وما عجز العقل عن معرفة أوله وتفصيل ما غاب عنه، ولما كان العقلُ عاجزاً عن ذلك يكون أعجز عن مناهضة ظاهر الكتاب والسنة والأخذ بهما وفق مطلب الشرع وتعليمه.

فإنَّ أياً إلا المنازعةَ أحوال النصوص المعقولة الظاهرة إلى معقولية العقل في الحكم على الغيب لنقض ظاهر النص البين، فيُحيل المنطوق إلى مفهوم معنى متوهم ومتوقع، هو يَنازع في معناه بين أطراف عدة تقول بقوله أو تخالف أصله.

ولو نظرنا إلى أصل الخلاف فيما يَجُوزُ اعتقاده وما لا يَجُوزُ، أو فيما يُقبل من الرواية وما يُرد عند الأشاعرة والمعتزلة، لوجدنا أنَّ كُلَّ فريقٍ منهم قد اعتمد على تأصيله الشخصي دون الميزان الشرعي، وما كان كذلك فإنه لا يمكن ضبطه بحال لتفاوت العباد فيه.

علمُ الكلام

اعلمَ يرحمك الله أنَّ أهلَ الكلام قد اختلفوا في حدِّ علم الكلام وموضوعه؛ إذ تنوعت عباراتُ أربابه في تعريفه.

فمثال الاختلاف في تعريفه ما قاله عضد الدين الإيجي في كتاب المواقف وشرحه: (الكلام: علم يُقتدَرُ معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه)^(١). وذكر كمال الدين بنُ الهمام تعريفَ علم الكلام في كتاب المسامرة: (والكلام معرفةُ النَّفس ما عليها من العقائد المنسوبة إلى دين الإسلام علماً وظناً في البعض منها. ومثاله في موضوعه ما ذهب إليه الإيجي والتفتزاني أنَّه المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد)^(٢).

أمَّا السيد شريف الجرجاني فإنه قال في شرح المواقف: (فإنَّه ما لم يثبت وجودَ صانع عالم قادر مكلف مرسل للرسل مُنزل للكتب، لم يُتصور علم تفسير وحديث ولا علم فقه وأصول، فكلُّها متوقفةٌ على علم الكلام، مقتبسةٌ منه، فالأخذ بدونه كَبَانٍ على غير أساس، وإذا سُئل عما هو فيه لم يقدر على برهان ولا قياس، بخلاف المستنبطين لها، فإنهم كانوا عالمين بحقيقته، وإن لم تكن فيما بينهم هذه الاصطلاحات المستحدثة فيما بيننا كما في علم الفقه بعينه)^(٣).

وليس القصدُ في إيراد تعريفه وموضوعه التَّوسُّع في ذلك أو الردَّ عليه، إذ جرى عرضه والكلام عليه في غير موضع من كتب أهل الإسلام وغيرهم.

لكن الغرض هنا التمهيد بإشارة للمنصفين، لبيان اختلاف المؤصلين لهذا المذهب المشين، وأنهم لما تغنوا بمقدمات عقولهم، عازفين ومعرضين عن منهج الحق الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح رضوان الله عليهم، هلكوا، واطربوا، وتباينت أقوالهم،

(١) (١/٢٣-٤٤) عن كتاب الباقلاني وآراؤه الكلامية.

(٢) (ص ١٨).

(٣) (١/٣٤).

واختلفت آراؤهم، وجالد كلٌّ عن رأيه وقوله، وذَبَّ عن مذهبه ومنهجه، حتى رجع الخلافُ إلى إثبات صحة ما أُصِّل، وتصويب ما قُعد، ولما كان الغرض من هذا المبحث بيان تجويز بعضهم لهذا العلم ونقض البعض له، لكان لنا وقفة طويلة معه. وعوداً على بدء نقول:

لقد كان لعلماء الأشاعرة في الحكم على علم الكلام بالإجمال مذهبين:
المذهب الأول: التجويز.

والثاني التحريم، وبيان ذلك فيما يأتي:

قال التفتزاني في شرح العقائد النسفية: (وما نقل عن السلف في الطعن فيه، والمنع عنه، فإنما هو للمتعصب في الدين، والقاصر عن تحصيل اليقين، والقصد إلى إفساد عقائد المسلمين، والخائض فيما لا يفتقر إليه من غوامض المتفلسفين، وإلا فكيف يُتصور المنع عما هو أصل الواجبات وأساس المشروعات)^(١).

وقد تقدم قول السيد الشريف الجرجاني الذي زعم أن الإسلام لا يمكن لأحد أن يقف على حقيقته وظنون علمه إلا بعلم الكلام.

ونقل الإمام البيهقي رحمه الله كلاماً للحلي فقال: (ولم ينهوا عن علم الكلام لأنَّ عيبه مذمومٌ أو غير مفيد، وكيف يكون العلم الذي يتوصل به إلى معرفة الله عز وجل، وعلم صفاته، ومعرفة رسله، والفرق بين النبي الصادق وبين المتنبي الكاذب عليه، مذموماً أو مرغوباً عنه).

وإظهار قول الأشاعرة في مدح علم الكلام كثيرٌ مستفيض ولا يسعُ أحدٌ جهله.

المذهب الثاني: لقد حرص المذهب المقابل للمذهب المتقدم على إبطال حُجج من أجاز علم الكلام ومدحه وذم مداخل المتكلمين وما آلوا إليه وأظهروا عوار مذهب المتكلمين مع كبير جهدهم فيه ومجاهدتهم به؛ فها هو الغزالي يعلي صوته ويرفع قلمه ناقشاً عبارته في كتابه المنقذ من الضلال: (فلم يكن الكلام في حقي كافياً، ولا لدائي الذي كنتُ

أشكرو منه شافياً^(١).

وقال في فيصل التفرقة: (فأمّا الكلامُ المحرر على رسم المتكلمين فإنه يُشعر نفوس المستمعين بأن فيه صنعة جدل ليعجز عنه العامي لا لكونه حقاً في نفسه وربما يكون سبباً لرسوخ العناد في قلبه... ولم تجر عادةُ السلف بالدعوة بهذه المجادلات، بل شددوا القول على من يخوض في الكلام ويستغل بالبحث والسؤال، وإذا تركنا المداهنة ومراقبة الجانب صرّحنا بأن الخوض في علم الكلام حرامٌ لكثرة الآفة فيه)^(٢).

إنّ هذا البيان من الإمام الغزالي ليس فيه مُؤاربةٌ ولا مجاملةٌ لأحد، بل صرّح به بعد شدّة عناءٍ ومكابدةٍ، وطولٍ بحثٍ وتنقيبٍ، مع عمق درايةٍ، وزيادة فهمٍ لتفاصيل علم الكلام، فقدّم ثمرةَ حياته وغاية سعيه وعلمه في هذا الباب.

وقال في الإحياء مبيناً حقيقة علم الكلام: (فاعلم أنّ حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي يتنفع بها؛ فالقرآن والأخبار مشتملةٌ عليه، وما خرج عنها فهو إمّا مجادلة مذمومة - وهي من البدع كما سيأتي بيانه -، وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها، وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها ترهات وهذيانات تزديها الطباع وتمجها الأسعاع، وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين، ولم يكن شيء منه مألوفاً في العصر الأول، وكان الخوض فيه بالكلية من البدع)^(٣).

ثم ذكّر ما آلت إليه الفرق من البدع بسبب علم الكلام، إلا أنّه أوجبه على البعض للذبّ عن الدين، وإزالة اللثام عن الشبهة الطارئة على عقول المعارضين والمعترضين والذاهلين، ولكن دون إفراطٍ في علم الكلام.

وهذا المذهب الأخير الذي نحا إليه الإمام الغزالي رحمه الله، نقّضه بما أصّله من قبل، وهو أنّ شبهة القوم مدحوضةٌ بالكتاب والسنة؛ فلا يُحتاج إلى علم الكلام، ولا يكون له فضل على الشريعة البتة.

(١) (ص ١٥).

(٢) (ص ١٥٢).

(٣) (١/ ٢٠).

فإن قيل إنه مأخوذ منها ولا فضل له، وكما العلوم مستنبطة من علم الشريعة فكذلك هذا العلم؛ إذ تقسياته وآلته مستعملة في الذب عن الشريعة.

الجواب: إن ما كان من الشريعة فهو شريعة، ولا يعتبر دخيلاً ولا ذا فضل؛ لأن ما كان من الشيء وجزء منه لا يكون منه مفضول ولا فاضل إلا بنص من نفس الوحي الذي يُقرر علو العلوم على بعضها، وهنا نقرر أن علم الكلام علمٌ دخيل وليس بأصيل، وهو مذموم لنفسه وما يفضي إليه من الضرر، والحال كما قيل: ما خرج عن منهج النبوة في البيان والمآل لا يُعد ديناً، وما لم يكن في عهد الصحابة العدول الحاملين للإواء المعرفة المؤمنين على وحي الرسالة ديناً فلا يجوز أن يعد في زماننا ديناً.

واليك كلام الأشاعرة أنفسهم في ذم هذا العلم:

ونبدأ بما قاله الحافظ ابن حجر في الفتح عن الإمام القرطبي قوله: (ولو لم يكن في الكلام مسألتان هما من مبادئه لكان حقيقاً بالذم).

إحداهما: قول بعضهم إن أول واجب الشك، إذ هو اللازم عن وجوب النظر، أو القصد إلى النظر، وإليه أشار الإمام بقوله: ركبت البحر.

ثانيهما: قول جماعة منهم: إن من لم يعرف الله بالطرق التي رتبوها، والأبحاث التي حرروها، لم يصح إيمانه، حتى لقد رُدَّ على بعضهم أن هذا يلزم منه تكفير أهلك وأسلافك وجيرانك، فقال: لا تُشنع علي بكثرة أهل النار.

قال: وقد رُدَّ بعض من لم يقل بها على من قال بهما بطريق من الرد النظري وهو خطأ شرعاً؛ فإن القائل بالمسألتين كافر شرعاً؛ لجعله الشك في الله واجباً، ومعظم المسلمين كفاراً، حتى يدخل في عموم كلامه السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وهذا معلوم الفساد من الدين بالضرورة، وإلا فلا يوجد في الشرعيات ضروري^(١).

وقال ابن حجر عن هذا العلم: (وما من كلام تسمعه لفرقة منهم إلا وتجد لخصومهم عليه كلاماً يوازيه أو يقاربه، فكلٌ بكلٍ مقابل، وبعضٌ ببعضٍ معارض، وحسبك من قبيح ما يلزم من طريقتهم أننا إذا جرينا على ما قالوه وألزمنا الناس بما ذكروه لزم من ذلك تكفير

العوام جميعاً؛ لأنهم لا يعرفون إلا الاتباع المجرد، ولو عرض عليهم هذا الطريق ما فهمه أكثرهم، فضلاً عن أن يصير منهم صاحب نظر، وإنما غاية توحيدهم ما وجدوا عليه أئمتهم في عقائد الدين، والعَصَّ عليها بالنواجذ، والمواظبة على وظائف العبادات، وملازمة الأذكار بقلوب سليمة طاهرة عن الشُّبُه والشُّكوك؛ فتراهم لا يحدون عن ما اعتقدوه ولو قُطِّعوا إرباً إرباً، فهنيئاً لهم هذا اليقين، وطوبى لهم هذه السلامة، فإذا كفر هؤلاء - وهم السواد الأعظم وجمهور الأمة - فما هذا إلا طيُّ بساط الإسلام، وهدمُ منار الدين، والله المستعان^(١).

وقال ابن الجوزي - الذي هو من كبار علماء الأشاعرة الذين يعوّل عليه عندهم في هذا الزمان - عن علم الكلام في كتابه تلبس إبليس: (ومنهم من نفّر إبليس عن التقليد، وحسّن الخوض له في علم الكلام، والنظر في أوضاع الفلاسفة ليخرج بزعمه عن غمار العوام، وقد تنوعت أحوال المتكلمين، وأفضى الكلام بأكثرهم إلى الشكوك، وبيعضهم إلى الإلحاد، ولم يسكت القدماء من فقهاء هذه الأمة عن الكلام عجزاً؛ ولكنهم رأوا أنّه لا يشفي غليلاً، ثم يَرُدُّ الصحيح غليلاً، فأمسكوا عنه، ونهوا عن الخوض فيه)^(٢).

وبعد:

اعلم يرحمك الله أنّ علم الكلام لما كان لا يأتي لأهله بخير، ويغمرهم في بحر ظلمة الشك والتردد والحيرة، ركب أساطنته وكبرائه قوارب النجاة، فعادوا أدراجهم منهكي القوى، نادمين على ما فاتهم من العمر بلا فائدة ولا قرينة، معلنين للناس التوبة عنه. ونبتدأ بذلك بما نقله ابن الجوزي في كتاب تلبس إبليس بإسناده إلى أحمد بن سنان قال: كان الوليد بن أبان الكرايسي خالي، فلما حضرته الوفاة قال لبنيّه: تعلمون أحداً أعلم بالكلام مني؟ قالوا: لا.

(١) ليس المقصود من ذكر كلام ابن حجر هنا ترجيح أنه أشعري؛ وإنما المراد بيان مذهبه عند من يزعم أنه منهم، وقد رجحت في كتابي منهج السلف أنه ليس بأشعري فانظره.
(٢) (٨٤-٨٥).

قال: فتهموني؟

قالوا: لا.

قال: فإني أوصيكم، أتقبلون؟

قالوا: نعم.

قال: عليكم بما عليه أصحاب الحديث؛ فإني رأيتُ الحق معهم.

وكان أبو المعالي الجويني يقول: لقد جُلْتُ أهل الإسلام جولة وعلومهم، وركبت البحر الأعظم، وغُصْتُ في الذي نهوا عنه؛ كل ذلك في طلب الحق، وهرباً من التقليد، والآن فقد رَجَعْتُ عن الكلِّ إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز؛ فإن لم يدركني الحقُّ بلطفٍ برِّه فأمرت على دين العجائز، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل بكلمة الإخلاص، فالويل لابن الجويني.

وكان يقول لأصحابه: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفتُ أنَّ الكلام يبلغ بي ما بلغ ما تشاغلته به.

وقال أبو الوفاء بن عقيل لبعض أصحابه: أنا أقطع أنَّ الصحابة ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض؛ فإن رضيتُ أنَّ تكون مثلهم فكن، وإن رأيتُ أنَّ طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر فبئس ما رأيتُ.

قال: وقد أفضى الكلامُ بأهله إلى الشكوك، وكثير منهم إلى الإلحاد، تشم روائح الإلحاد من فلتات كلام المتكلمين، وأصلُ ذلك أنَّهم ما قنعوا بما قنعت به الشرائع. وقد بالغتُ في الأول طول عمري ثم عدتُ القهقري إلى مذهب الكتب.

وإنما قالوا أنَّ مذهب العجائز أسلم لأنهم لما انتهوا إلى غاية التدقيق في النظر لم يشهدوا ما ينفي العقل من التعليقات والتأويلات، فوقفوا مع مراسم الشرع، وجنحوا عن القول بالتعليل، وأدعن العقل بأنَّ فوقه حكمة إلهية فسَلَّم).

وكان ابنُ عقيل قد صَنَّف كتاباً في علم الكلام، وسَمَّاه النصيحة، وبكلامه هذا يظهر رجوعه عن علم الكلام.

وقد صَنَّف الإمام ابن قدامة المقدسي كتاباً في الردِّ عليه أسماه تحريم النظر في علم

الكلام.

وقال إمام المتكلمين فخر الدين بن الخطيب الرازي في وصيته: (ولقد اخترت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم؛ لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى، ويمنع التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات؛ وما ذلك إلا للعلم بأنَّ العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية)^(١).

وهذا الشهرستاني صاحب نهاية الإقدام في علم الكلام وصف حاله فيما وصل إليه من الكلام وما قاله فتمثل بما قاله^(٢):

لعمري لقد طفئت المعاهد كلها وسيرت طرقي بين تلك المعالم
فلم أرى إلا واضعاً كفَّ حائر على ذقنه أو قارعاً سن نادم
وأما أقوال أهل السنة في ذمه فهي كثيرة وفيرة، وكلُّها تدور على حرمة وتضليل من سلك مسالكه وأخذ به.

ويكفيك قول الإمام الشافعي رحمه الله فيما رواه عنه أبو نُعَيْم في الحلية: (لأنَّ يُبْتلى العبدُ بكلِّ ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في علم الكلام)^(٣).

ونختم هذا المبحث بما قاله الدسوقي في حاشيته على أم البراهين: (وليحذر المبتدي جهده أن يأخذ أصول دينه من الكتب التي حشيت بكلام الفلاسفة، وأولع مؤلفوها بنقل هوسهم وما هو كفر صراح من عقائدهم التي ستروا نجاستها بما ينبههم على كثير من اصطلاحاتهم وعباراتهم التي أكثرها أساء بلا مسميات؛ وذلك ككتب الفخر في علم الكلام، وطوالع اليبضاوي، ومن حذا حذوهم، وقُلَّ أن يفلح من أولع بصحبة كلام الفلاسفة، أو يكون له نور إيمان في قلبه أو لسانه، وكيف يُفلح من وإلى من حادَّ الله ورسوله، وخرق حجاب الهيبة، ونبذ الشريعة وراء ظهره، وقال في حق مولانا جل وعز

(١) انظر مزيداً من كلامه في السير (٢١/ ٥٠١) وطبقات الشافعية للسبكي (٣٧/ ٥).

(٢) انظر الروض الباسم (٢/ ١٤-١٥).

(٣) (٩/ ١١١).

وفي حق رسله عليهم الصلاة والسلام ما سولت له نفسه الحمقاء، ودعاه إليه وهمه المختل.

ولقد خال بعض الناس؛ فتراه يُشرف كلام الفلاسفة الملعونين، ويشرف الكتب التي تعرضت لنقل كثير من حماقاتهم، تَمَكَّنَ في نفسه الأمانة بالسوء من حب الرياسة، وحب الإغراب على الناس بما ينبههم على كثير منهم من عبارات واصطلاحات، يوهمهم أنَّ تحتها علوماً دقيقة نفيسة؛ وليس تحتها إلا التخليط والهوس والكفر الذي لا يرضى أن يقر له عاقل، وربما يُؤثر بعض الحمقى هوسهم على الاشتغال بما يعنيه من التفقه في أصول الدين وفروعه عن طريق السلف الصالح والعمل بذلك، ويرى هذا الخبيث لانطماس بصيرته وطرده عن باب فضل الله تعالى إلى باب غضبه أنَّ المشتغلين بالتفقه في دين الله تعالى العظيم لفوائد دنيا وأخرى بلداء الطبع ناقصوا الذكاء، فما أجهل هذا الخبيث وأقبح سريره وأعمى قلبه حتى رأى الظلمة نوراً والنور ظلمة. ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٤١) سَمْعُونُ لِلْكَذِبِ أَكْثَلُونَ لِلْحَـكِّ ﴿المائدة: ٤١، ٤٢﴾

نسأله سبحانه أن يعاملنا ويعامل جميع أحبتنا إلى الممات بمحض فضله، ويقيهم في هذا الزمان الصعب موارد الفتنة^(١).

وقد حاول الشيخ محمد الدسوقي تلطيف العبارة وتفسيرها بما يمكن دفع المذمة السابقة، فقال:

((قوله: وذلك) أي: وما ذكر من الكتب التي حشيت بكلام الفلاسفة.

(قوله: ككتب الإمام الرازي في علم الكلام، وطوالع البضاوي، ومن حذا حذوها)

أي: ومن سلك مسلكهما كالآرموي والعلامة السعد والعضد وابن عرفة.

قال البرهان اللقاني في هداية المريد: إنَّ كلام الأوائل كان مقصوراً على الذات

والصفات والتبوات والسمعيات، فلمَّا حدثت طوائف المبتدعة كُثِرَ جداهم مع علماء الإسلام، وأوردوا شبهاً على ما قرره الأوائل، وخلطوا تلك الشبهة بكثير من قواعد الفلاسفة ليستروا ضلالهم، فتصدى المتأخرون كالفخر ومن ذكر معه لدفع تلك الشبهة وهدم تلك القواعد فاضطروا لإدراجها في كتبهم، ولا لَوَمَ عليهم في ذلك، ولا يصح توجيه الذم لهم، وتحذير بعض المتأخرين لهم إنَّما هو للقاصرين الذين يصلون إليهم).

أَوَّلُ واجب على المكلف

قال البغدادي في أصول الدين: (المسألة الرابعة عشرة: من شروط صحة الإيمان عندنا: تَقَدُّمُ المعرفة بالأصول العقلية في التوحيد والحكمة والعدل وثبوت النبوة والرسالة واعتقاد أركان الإسلام)^(١).

وقد شرح هذا الإجمال في المسألة الثانية عشرة منه، وبيّن من تصح منه الطاعة ومن لا تصح؛ فقال: (كُلُّ من عَرَفَ حدوث العالم وتوحيد صانعه وصفاته وعدله وحكمته، وعرف شروط النبوة وأصول الشريعة صحّت منه الطاعة لله تعالى، ومن جهل هذه الأصول أو بعضها لم يصح منه الطاعة لله تعالى إلا واحدة وهي النظر والاستدلال على معرفة الله تعالى، فإن ذلك طاعة؛ فمن استدل عليه قبل معرفته به لآثمه مأمور بذلك)^(٢). وهذا فيه أصلان:

الأول: أنّه جعل مجرد المعرفة إيماناً، وهذا مناقض ومخالف لما تقدّم من وجوب التصديق عند الأشاعرة، وقد علّم يقيناً أنّ عامة الخلق لا يجهلون أنّ الله هو الخالق المدبر لهذا الكون.

الثاني: أنّه جعل توحيد الربوبية عين توحيد الألوهية. ولا يخفى الفرق بينهما عند أهل السنة، إذ المراد بتوحيد الربوبية: الإيمان بأنّ الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، وهو الذي كان يؤمن به كفار قريش كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنَّهُ يُفَكِّحُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

الثاني: هو صرف العبادة لله دون غيره كما أمر الله بقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥].

غير أننا نرى أنّ كثيراً من الأشاعرة دمجوا بين هذين المعنيين كما قال الباقلاني في

(١) (ص ٢٦٩).

(٢) (ص ٢٦٧).

الإنصاف: (والتوحيد له هو: الإقرار بأنه ثابت موجود، وإله واحد فرد معبود، ليس كمثلته شيء، على ما قرره به قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ^(١).

فمما جعل هذا التصور والفهم في المعنى إلى الدفع بقول بعضهم إنَّ أوَّل واجبٍ على المكلف النَّظَرُ في الآيات؛ كما قال الباقلاني في الإنصاف: (وأنَّ يعلم أنَّ أوَّل ما فرض الله عز وجل على جميع العباد النظر في آياته، والاعتبار بمقدوراتها، والاستدلال عليه بآثار قدرته وشواهد ربوبيته؛ لأنه سبحانه غير معلوم باضطرار، ولا مشاهد بالحواس، وإنَّما يُعْلَم وجوده وكونه على ما تقتضيه أفعاله بالأدلة القاهرة والبراهين الباهرة) ^(٢).

وقال الجويني في كتابه الشامل في أصول الدين: فصل في أوَّل واجب على المكلف: (فإن قال قائل: ما أوَّل واجب على المكلف؟

قلنا: هذا مما اختلفت فيه عبارات الأئمة فذهب بعضهم إلى أنَّ أوَّل واجب عليه النظر والاستدلال المؤديان إلى معرفة الصانع.

والذي اختاره القاضي رضي الله عنه التصريح بالمقصود؛ فإنَّه قال: أوَّل واجب على المكلف: النظر أو جزء من النظر.

وقال أبو هاشم الجبائي: أوَّل واجب على المكلف: الشك في الله، إذ لابد من تقديم الشك على النظر، ومن هذا الضرب من الشك قال: الشك في الله حسن. وهذا خروج منه عن قول الأئمة، وتوصل منه إلى هدم أصله) ^(٣).

قلت: إنَّ الكلام المتقدم يُبَيِّن لنا مذهبين:

الأول: يقول بأنَّ أوَّل واجب على المكلف هو مطلق النَّظَر الذي يحقق كمال المعرفة بالخالق.

(١) (٣٤).

(٢) (٣٣).

(٣) (ص ١٢٠).

يَدَّ أَنْ المذهب الثاني - وإن تداخل مع الأول - لكنّه رجّح أن أوّل واجب على المكلف جزء من النظر الذي يتحقق به معرفة الخالق، إذ به يسقط الإثم. والفرق بين القولين: أن مطلق النظر إلى بلوغ كمال الاستدلال يختلف عن جزء من النظر الذي يحقق الغاية بالاستدلال على الخالق تبارك وتعالى.

إنّ كلام الأشاعرة المتقدم يردُّ أوّله على آخره، وآخره على أوّله، وينقضّ نفسه بنفسه، بل إنّ الإمام النووي قال في المجموع مبيناً بطلان تأصيلهم وتفصيلهم المتقدم عنهم؛ فقال: (وأما ما يتعلق بالعقائد فيكفي فيه التصديق بكل ما جاء به رسول الله ﷺ، واعتقاده اعتقاداً جازماً سليماً من كل شك؛ ولا يتعيّن على من حصل له هذا تعلم أدلة المتكلمين، هذا هو الصحيح الذي أطبق عليه السلف والفقهاء والمحققون من المتكلمين من أصحابنا وغيرهم؛ فإنّ النبي ﷺ لم يطالب أحداً بشيء سوى ما ذكرناه.

وكذلك الخلفاء الراشدون ومن سواهم من الصحابة فمن بعدهم من الصدر الأوّل؛ بل الصواب للعوام وجماهير المتفقيين والفقهاء الكف عن الخوض في دقائق الكلام مخافة اختلال يتطرق إلى عقائدهم يصعب عليهم إخراجهم؛ بل الصواب لهم الاختصار على ما ذكرناه من الاكتفاء بالتصديق الجازم، وقد نصّ على ذلك جماعات من حذاق أصحابنا وغيرهم.

وقد بالغ إمامنا الشافعي رحمه الله تعالى في تحريم الاشتغال بعلم الكلام أشدّ مبالغة، وأطنب في تحريمه وتغليظ العقوبة لمعطائه وتقبيح فعله وتعظيم الإثم فيه فقال: لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام^(١).

وقال ابن حجر في الفتح: (وقد ذكرت في كتاب الإيمان: من أعرض عن هذا من أصله، وتمسك بقوله تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وحديث: «كل مولود يولد على الفطرة»، فإنّ ظاهر الآية والحديث أنّ المعرفة حاصلةٌ بأصل الفطرة، وأنّ الخروج عن ذلك يطرأ على الشخص لقوله عليه الصلاة والسلام «فأبواه يهودانه أو ينصرانه»، وقد وافق أبو جعفر السمناني - وهو من

رؤوس الأشاعرة - على هذا وقال: إنَّ هذه المسألة بقيت في مقالة الأشعري من مسائل المعتزلة وتفرَّع عليها: أنَّ الواجب على كلِّ أحد معرفة الله بالأدلة الدالة عليه، وأنَّه لا يكفي التقليد في ذلك. انتهى^(١).

وقد نقل ابن حجر عن القرطبي قوله: (ولو لم يكن في الكلام إلا مسألتان هما من مبادئه لكان حقيقاً بالذم).

أحدهما: قول بعضهم إنَّ أول واجب الشك؛ إذ هو اللازم عن وجوب النظر أو القصد إلى النظر، وإليه أشار الإمام بقوله: ركبت البحر.

ثانيهما: قول جماعة منهم: إنَّ من لم يعرف الله بالطريق التي رتبوها والأبحاث التي حرروها لم يصح إيمانه، حتى لقد رُدَّ على بعضهم أن هذا يلزم تكفير أبيك وأسلافك وجيرانك.

فقال: لا تُشنع علي بكثرة أهل النار.

قال: وقد رُدَّ من لم يقل بهما على من قال بهما بطريق من الرد النظري؛ وهو خطأ شرعاً، فإنَّ القائل بالمسألتين كافر شرعاً لجعله الشك في الله واجباً، ومعظم المسلمين كفار، حتى يدخل في عموم كلامه السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وهذا معلوم الفساد من الدين بالضرورة، وإلا فلا يوجد في الشرعيات ضروري^(٢).

وقال الغزالي في كتابه فيصل التفرقة من سلسلة القصور العوالي: (من أشد الناس غلواً أو إسرافاً طائفة من المتكلمين؛ كفَّروا عوام المسلمين، وزعموا أنَّ من لا يعرف الكلام مغرقتاً، ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتنا التي حررناها، فهو كافر، فهو لاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده).

أولاً: جعلوا الجنة لشرذمة قليلة من المتكلمين، ثم جهلوا ما تواتر من السنة.

ثانياً: إذ ظهر لهم في عصر رسول الله ﷺ وعصر الصحابة رضي الله عنهم حكمهم

(١) (٣/٣٤٩).

(٢) (١٣/٣٥٠ فتح) علماً بأن هذا النص قد سبق ذكره في موضعه، ولكن كررناه لفائدته وهو في موضعه ولم استغن عن ذكره بالإحالة ولا بالإشارة.

بإسلام طوائف من أجلاف العرب كانوا مشغولين بعبادة الوثن ولم يشتغلوا بعلم الدليل؛ ولو اشتغلوا به لم يفهموه، ومن ظنَّ أنَّ مدرك الإيمان الكلام والأدلة المجردة والتقسيمات المرتبة فقد أبدع حدَّ الإبداع، بل الإيمان نور يقذفه الله في قلب عبده عطية وهدية من عنده^(١).

وقال: (فليت شعري متى نُقل عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة رضي الله عنهم إحضار أعرابي أسلم، وقوله له: الدليل على أنَّ العالمَ حادثٌ: أنَّه لا يخلو عن الأعراض، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث؟! وأنَّ الله تعالى عالم بعلم، وقادر بقدرة زائدة عن الذات لا هي هو ولا هي غيره؟! إلى غير ذلك من رسوم المتكلمين؟!)^(٢).

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: (وقد نقل القدوة أبو محمد بن أبي جرة عن أبي الوليد الباجي عن أبي جعفر السمناني - وهو من كبار الأشاعرة - أنه سمعه يقول أنَّ هذه المسألة من مسائل المعتزلة بقيت في المذهب، والله المستعان)^(٣).

ونختم هذا المبحث بما سبق من قول الحافظ ابن حجر في الفتح: (وما من كلام تسمعه لفرقة منهم إلا وتجده لخصومهم عليه كلاماً يوازنه أو يقاربه، فكل بكل مقابل، وبعض ببعض معارض، وحسبك من قبيح ما يلزم من طريقتهم أنا إذا جرينا على ما قالوه، وألزمنا الناس بما ذكروه؛ لزم من ذلك تكفير العوام جميعاً؛ لأنهم لا يعرفون إلا الاتباع المجرد؛ ولو عرض عليهم هذا الطريق ما فهمه أكثرهم، فضلاً عن أن يصير منهم صاحب نظر، وإنما غاية توحدهم ما وجدوا عليه أثمتهم في عقائد الدين والعص عليها بالنواجز، والمواظبة على وظائف العبادات، وملازمة الأذكار بقلوب سليمة طاهرة عن الشبه والشكوك، فتراهم لا يحيدون عما اعتقدوه ولو قطعوا إرباً، فهنيئاً لهم هذا اليقين، وطوبى لهم هذه السلامة، فإذا كفر هؤلاء - وهم السَّواد الأعظم وجمهور الأمة - فما هذا إلا طيُّ بساط الإسلام، وهدمُ منار الدين، والله المستعان)^(٤).

(١) (ص ١٥٠).

(٢) (ص ١٥١).

(٣) (١/ ٧١).

(٤) (١٣/ ٥٠٧).

وأختم بما قال الشيخ محمد الدسوقي في حاشية الدسوقي على أم البراهين: (حاصل الإشكال أنه لو صحَّ القول بأنَّ المقلد ليس بمؤمن لزم عليه تكفير أكثر العوام؛ لأن أكثر العوام مقلدون لا عارفون كما هو مشاهد، لكن التالي باطل؛ لأنَّ تكفير أكثر العوام منافٍ لما عَلِمَ من أنَّ نبيَّنا محمد ﷺ أكثر الأنبياء أتباعاً، ولما ورد من أنَّ أمته ثلثا أهل الجنة، وإذا بطل التالي بطل المقدم، وثبت عدم صحة القول بأنَّ المقلد ليس بمؤمن.

وقد يقال: لا نسلم بطلان التالي؛ بل العوام كفار لإعراضهم عن النَّظر المطلوب منهم، فهم ليسوا من الأمة، فضلاً عن أنَّ يكونوا معظمها، بل هو عوام، وليس ذلك منافياً لما عَلِمَ ولما ورد لجواز أن يكون العلماء والأقل من العوام أكثر من أتباع الأنبياء، وأنهم ثلثا أهل الجنة وأيُّ صاّدٍ عقلي يصد عن ذلك لكنه خلاف المتبادر، فلذا أجاب الشارح بغيره.

قوله: (وهم) أي: أكثر العوام (معظم هذه الأمة) أي: أمة الإجابة.
(قوله: وذلك) أي: تكفير أكثر العوام مما يقدر ... الخ؛ يعني واللازم باطل لأنَّ ذلك مما يقدر ... الخ.

(قوله: وأجيب بأنَّ المراد ... الخ) أي: وأجيب بمنع الملازمة لأنَّ المراد ... الخ.
وحاصل الجواب منع الملازمة؛ وسند المنع أنَّ الدليل الذي يجب معرفته على جميع المكلفين إنَّما هو الدليل الجملي؛ وهو حاصل عند العوام؛ فلا يكونون مقلدين بل هم مستدلون بدليل جملي، ومن ثم قال العلامة السعد: محل الخلاف في إيمان المقلد فيمن نشأ بشاهق جبل ولم يخالط أهل الإسلام، أما من خالطهم فليس مقلداً، نعم لو كان الدليل الذي تجب معرفته على جميع المكلفين الدليل التفصيلي كانت الملازمة مسلمة، وقد علمت أنَّ الدليل التفصيلي لم يُكَلَّف جميع المكلفين بمعرفته، على أنَّنا لو سلمنا الملازمة فلا نسلم بطلان التالي بل نقول بموجبه^(١).

قوله في الإيمان

قال الشيخ إبراهيم بن حسن اللقاني في منظومته:
وَفُسِّرَ الإِيْمَانُ بِالتَّصْدِيقِ وَالنُّطْقُ فِيهِ الْخَلْفُ بِالتَّحْقِيقِ
وَفُسِّرَ هَذَا الْكَلَامُ الْبَيْجُورِيُّ فَقَالَ: (إِنَّ الإِيْمَانَ هُوَ مَجْرَدُ التَّصْدِيقِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ
مَتَغَايِرَانِ، وَمَنْ صَدَّقَ بِقَلْبِهِ وَلَمْ يَتَّفَقْ لَهُ الْإِقْرَارُ فِي عَمَرِهِ لَا مَرَّةً وَلَا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ مَعَ الْقُدْرَةِ
عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ مُؤْمِنٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُ شَرْطٌ فِي إِجْرَاءِ الْأَحْكَامِ الدُّنْيَوِيَّةِ)^(١).
قُلْتُ: إِنَّ هَذَا التَّأْصِيلَ الَّذِي قَالَهُ الْبَيْجُورِيُّ عَلَى أَنَّهُ خُلَاصَةُ مَذْهَبِ الْأَشَاعِرَةِ يَدُلُّ
عَلَى ثَلَاثِ مَسَائِلَ:

الأول: أَنَّ الإِيْمَانَ هُوَ مَجْرَدُ التَّصْدِيقِ الْقَلْبِيِّ.
الثاني: أَنَّ الإِيْمَانَ هُوَ تَصْدِيقٌ وَنُطْقٌ فَقَطْ.
الثالث: أَنَّ الْأَعْمَالَ لَا عِلَاقَةَ لَهَا بِالْإِيْمَانِ كَمَا لَا وَأَصْلًا.
وقد صَرَّحَ بِهَذَا الْخِلَافَ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْبَغْدَادِيُّ فِي كِتَابِهِ أَصُولُ الدِّينِ: (فَأَمَّا حَقِيقَتُهُمَا
عَلَى لِسَانِ أَهْلِ الْعِلْمِ فَإِنَّ أَصْحَابَنَا اخْتَلَفُوا فِيهِمَا عَلَى ثَلَاثَةِ مَذَاهِبٍ.
فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ: إِنَّ الإِيْمَانَ هُوَ التَّصْدِيقُ لِلَّهِ وَلِرُسُلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي
إِخْبَارِهِمْ؛ وَلَا يَكُونُ هَذَا التَّصْدِيقُ صَحِيحًا إِلَّا بِمَعْرِفَتِهِ.
وَالْكَفَرُ عَنْهُ هُوَ التَّكْذِيبُ.

وإلى هذا القول ذهب ابن الراوندي والحسين بن الفضل البجلي.
وكان عبد الله بن سعيد يقول: إِنَّ الإِيْمَانَ هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَبِكُتْبِهِ وَبِرُسُلِهِ إِذَا
كَانَ ذَلِكَ عَنْ مَعْرِفَةٍ وَتَصْدِيقٍ بِالْقَلْبِ، فَإِنْ خَلَا الْإِقْرَارُ عَنِ الْمَعْرِفَةِ بَصَحَّتْ لَمْ يَكُنْ
إِيْمَانًا^(٢).

(١) (٥١-٦٤).

(٢) (٢٤٨-٢٤٩).

وقد نصَّ الغزالي في الإحياء: أنَّ الإيمان في اللغة التصديق، وفي الشرع عند إطلاقه مجرد التصديق؛ فقال: (لأنَّ الإيمانَ عملٌ من الأعمال وهو أفضلها، والإسلام هو تسليم إيماناً بالقلب وهو التصديق الذي يسمى إيماناً... وأمَّا الاختلافُ فهو أنَّ يجعل الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب فقط وهو موافق للغة)^(١).

وقد ظننتُ في أوَّل الأمر أنَّ الغزالي قد أجاز اعتبار الأعمال إيماناً؛ لكنني رأيتُه يرجع بقوله إلى عموم قول الأشاعرة لما قال في الإحياء: (والإيمان عبارة عن بعض ما دخل في الإسلام وهو التصديق بالقلب وهو الذي عيناه بالتداخل، وهو موافق للغة في خصوص الإيمان وعموم الإسلام للكل)^(٢).

بل إنَّ الغزالي أبان في التقسيم الإيماني أنَّ العمل لا تعلق له بالإيمان أصلاً؛ فقال في الإحياء: (إذ يقال له - أي للخصم - من صدَّق بقلبه وشهد بلسانه ومات في الحال فهل هو في الجنة؟ فلا بد أن يقول: نعم؛ وفيه حكم بوجود الإيمان دون العمل؛ فنزيد ونقول: لو بقي حياً حتى دخل عليه وقت صلاة واحدة فتركها ثم مات، أو زنى، فهل يخلد في النار؟ فإن قيل: نعم، فهو مراد المعتزلة، وإن قال: لا، فهو تصريح بأنَّ العمل ليس ركناً من نفس الإيمان، ولا شرطاً في وجوده، ولا في استحقاق الجنة به)^(٣).

قلتُ: ورَّتب على ذلك قوله: (الدرجة الخامسة: أن يصدَّق بقلبه ويساعده من العمر مهلة النطق بكلمتي الشهادة وعلم بوجوبها ولكنه لم ينطق فيحتمل أن يجعل امتناعه عن النطق كامتناعه عن الصلاة، ونقول هو مؤمن غير يخلد في النار، والإيمان هو التصديق المحض، واللسان ترجمان الإيمان موجداً بتمامه قبل اللسان حتى يترجمه اللسان، وهذا هو الأظهر، إذ لا مستند إلا اتباع موجب الألفاظ، ووضع اللسان أن الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب، وقد قال ﷺ: «يُخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة»، ولا ينعدم الإيمان في القلب بالسكوت عن النطق الواجب، كما لا ينعدم بالسكوت عن الفعل

(١) (١٠٣/١).

(٢) (١٠٤/١).

(٣) (١٠٤/١).

(الواجب)^(١).

قلت: والكلام المتقدم عن البيجوري مُتَّفَقٌ مع الذي حكاه الغزالي هنا. وقد ردَّ الإمام النووي على مثل هذه الفكرة في شرحه على صحيح مسلم فقال: (واتفق أهل السنة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين على أنَّ المؤمن الذي يُحكم بأنَّه من أهل القبلة ولا يخلد في النار لا يكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقاداً جازماً خالياً من الشكوك ونطق بالشهادتين؛ فإنَّ اقتصر على أحدهما لم يكن من أهل القبلة إلا إذا عجز عن النطق؛ لخلل في لسانه، أو لعدم التمكن منه لمعالجته المنية، أو لغير ذلك، فإنه يكون مؤمناً)^(٢).

وقال ابن حجر على القول الأول: (تنبيه: تعلق بهذا الأثر من يقول: إنَّ الإيمان هو مجرد التصديق.

وأجيب بأنَّ مراد ابن مسعود أنَّ اليقين هو أصل الإيمان؛ فإذا أيقن القلب انبعثت الجوارح كلها للقاء الله بالأعمال الصالحة، حتى قال سفيان الثوري: لو أنَّ اليقين وقع في القلب كما ينبغي لطار اشتياقاً إلى الجنة وهرباً من النار)^(٣).

وقال تحت حديث أنس؛ «يُخرج من النار من قال: لا إله إلا الله»: (فيه دليل على اشتراط النطق بالتوحيد أو المراد بالقول هنا القول النفسي؛ فالمعنى: من تأخر بالتوحيد وصدَّق فالإقرار لا بد منه)^(٤).

وقد رد ابن بطل على من قال: إنَّ الإيمان مجرد التصديق؛ فقال كما حكاه النووي في شرحه على صحيح مسلم عنه: (فالمعنى: الذي يستحق به العبد المدح والولاء من المؤمنين هو إثباته لهذه الأمور الثلاثة: التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح؛ وذلك أنَّه لا خلاف بين الجميع أنَّه لو أقرَّ وعَمِلَ على غير علم منه ومعرفة بربه لا يستحق اسم مؤمن، ولو عرفه وعمل وجمد بلسانه وكذب ما عرف من التوحيد لا يستحق اسم

(١) (١/١٠٥).

(٢) (١/١٤٩).

(٣) (١/٤٨).

(٤) (١/١٠٤).

مؤمن، وكذلك إذا أقرَّ بالله تعالى وبرسوله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ولم يعمل بالفرائض لا يسمى مؤمناً بالإطلاق؛ وإن كان في كلام العرب يسمى مؤمناً بالتصديق؛ فذلك غير مستحق في كلام الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۖ﴾ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴿[الأنفال: ٢-٤]، فأخبر سبحانه وتعالى أن الإيمان هو العمل.

فإن قيل: قد قدَّمتم أن الإيمان هو التصديق؟

قيل: التصديق هو أوَّل منازل الإيمان ويجب للمصدق الدخول فيه، ولا يوجب استكمال منازل ولا يسمى مؤمناً مطلقاً، هذا مذهب جماعة أهل السنة أن الإيمان قول وعمل^(١) اهـ.

أمَّا ما قاله الغزالي؛ فقد رد عليه البيهقي في كتابه شعب الإيمان بوضوح وجلاء، وذلك لما قال في (باب الدليل على أن التصديق بالقلب والإقرار باللسان أصل الإيمان وأن كلاهما شرط في الثقل عن الكفر عند عدم العجز.

قال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَآلَاسْبَاطَ﴾ [البقرة: ١٣٦]؛ فأمر المؤمنين أن يقولوا آمنا بالله.

وقال الله عز وجل: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]. فأخبر أن القول العاري عن الاعتقاد ليس بإيمان، وأنه لو كان في قلوبهم إيمان لكانوا مؤمنين لجمعهم بين التصديق بالقلب والقول باللسان، ودلَّت السنة على مثل ما دل عليه الكتاب^(٢).

وأكد على هذا المعنى القرطبي في تفسيره أحكام القرآن تحت قول الله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَتَزَلُ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَكْفُرَعُونَ

(١) (١/١٤٨).

(٢) (١/٧).

مَشْجُورًا ﴿١٠٩﴾ [الإسراء: ١٠٢].

فقال: (وقيل: إنما أضاف موسى إلى فرعون هذه المعجزات لأن فرعون قد عَلِمَ مَقَارَّ ما يتهيأ للسحرة فعله، وأنه لا يقدر على فعله إلا من يفعل الأجسام ويملك السماوات والأرض) (١).

وقال تحت قوله عز وجل: ﴿وَجَعَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿١٤﴾ [النمل: ١٤]: (أي تيقنوا أنها من عند الله، وأنها ليست سحراً، ولكنهم كفروا بها، وتكبروا أن يؤمنوا بموسى، وهذا يدل على أنهم كانوا معاندين).
وخلاصة القول: إن من الأشاعرة من زعم أن الإيمان هو مجرد التصديق.
ومنهم من زاد على المذهب الأول: النطق؛ على ما يأتي راداً على المذهب الأول، ومبيناً بطلانه وفساده.

ولو أردنا بيان بطلان هذا المذهب من الكتاب والسنة لطال الأمر.
وقد صنف العلماء من أهل السنة في الإيمان كتباً: ككتاب الإيمان لابن مندة، وكتاب الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام الذي قال تحت باب من جعل الإيمان المعرفة بالقلب وإن لم يكن عمل: (ثم حدثت فرقة ثالثة شذت عن الطائفتين جميعاً؛ ليست من أهل العلم ولا الدين؛ فقالوا: الإيمان معرفة القلب بالله وحده وإن لم يكن هناك قول ولا عمل، وهذا منسلخ عندنا من قول أهل الملل الخنيفية لمعارضته لكلام الله ورسوله ﷺ بالرد والتكذيب، ألا تسمع قوله: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ إِنْ رِجْهَ وَاسْتَعِذْ وَاسْتَحَقِّ وَنَعْقُوبِ وَالْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦]؛ فجعل القول فرضاً حتماً كما جعل معرفته فرضاً؛ ولن يرضى بأن يقول اعرفوني بقلوبكم، ثم أوجب مع الإقرار الإيمان بالكتب والرسول كإيجاب الإيمان؛ ولم يجعل لأحد إيماناً إلا بتصديق النبي ﷺ في كل ما جاء به فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقال: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ

وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ [النساء: ٦٥]، وقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]؛ يعني النبي ﷺ، فلم يجعل الله معرفتهم به إذ تركوا الشهادة له بألستهم إيماناً، ثم قال رسول الله ﷺ عن الإيمان: «أَنْ تَوْمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ» في أشياء عدها كثيرة في هذا لا تحصى).

وزعمت هذه الفرقة أن الله رضي عنهم بالمعرفة؛ ولو كان أمر الله ودينه على ما يقول هؤلاء ما عرف الإسلام من الجاهلية؛ ولا فرقت الملل بعضها من بعض بالدعوى على قلوبهم غير إظهار الإقرار بما جاءت به النبوة، والبراءة مما سواها، وخلع الأنداد والآلهة بالألسنة بعد القلوب، ولو كان هذا يكون مؤمناً ثم شهد رجل بلسانه أن الله ثاني اثنين كما يقول المجوس الزنادقة، أو ثالث ثلاثة كما يقل النصارى، وصلى للصليب، وعبد النيران بعد أن يكون قلبه على المعرفة بالله لكان يلزم هذه المقالة أن يكون مؤمناً مستكملاً بالإيمان كإيمان الملائكة والنبیین، فهل يلفظ بهذا أحد يعرف الله أو مؤمن له بكتاب أو رسول؟! وهذا عندنا كفر لن يبلغه إبليس فمن دونه من الكفار قط^(١).

المذهب الثاني: قول بعضهم: لا بد من النطق مع الاعتقاد، وأن الأعمال لا علاقة لها بالإيمان أصلاً.

قلت: إن هذا المذهب قد زاد على المذهب الأول بالنطق، ورد على من جعل الإيمان مجرد التصديق كما تقدم بيانه.

وقد زعم شارح الجوهرة أن سبب النطق باللسان عند الجمهور إقامة الحدود الدنيوية، وإجراء الأحكام الشرعية، فقال: (وقد فهم الجمهور أن مرادهم أنه شرط لإجراء أحكام المؤمنين عليهم من التوراث والتناكح والصلاة خلفه وعليه الدفن في مقابر المسلمين ومطالبته بالصلوات والزكوات وغير ذلك؛ لأن التصديق القلبي وإن كان إيماناً إلا أنه باطن خفي؛ فلا بد له من علامة ظاهرة تدل عليه لتناط به تلك الأحكام؛ فمن صدق بقلبه ولم يقر بلسانه لا لعذرٍ منعه، ولا لإبائه، بل اتفق له ذلك، فهو مؤمن عند الله،

غير مؤمن في الأحكام الدنيوية ... وأما الآبي بأن طلب منه النطق بالشهادتين فأبى فهو كافر فيها، ولو أذعن في قلبه فلا ينفعه ذلك ولو في الآخرة^(١).

إن الغرض من بيان هذا المذهب إبطال ما قام عليه القول الأول من الاكتفاء بالتصديق أو تبرير النطق بما لا تعلق بالإيمان أصلاً؛ وكذلك التأكيد على أن هذين المذهبين لا يُدخلان العمل في الإيمان شرطاً أو كمالاً، وهذا خلاف ما عليه قوم آخرون من أهل هذا المذهب.

قال الإمام الباقلاني في الإنصاف: (واعلم أنا لا ننكر أن نطلق القول بأن الإيمان عقد بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان على ما جاء في الأثر؛ لأنه ﷺ إنما أراد بذلك أن يخبر عن حقيقة الإيمان الذي ينفع في الدنيا والآخرة؛ لأن من أقر بلسانه، وصدق بقلبه، وعمل أركانه^(٢)، حكمنا له بالإيمان، وأحكامه في الدنيا من غير توقف ولا شرط، وحكمنا له أيضاً بالثواب في الآخرة، وحسن المنقلب من حيث شاهد الحال، وقطعنا له بذلك في الآخرة؛ بشرط أن يكون في معلوم الله تعالى أنه يحياه على ذلك ويميته عليه. ولو أقر بلسانه؛ وعمل بأركانه؛ ولم يُصدّق بقلبه نفعه ذلك في أحكام الدنيا ولم ينفعه في الآخرة^(٣)).

ومن رجع أن الإيمان له تعلق بالأعمال وتأثير عليه الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم فيما نقل عن أبي عبد الله الأصبهاني وغيره: (وقال الإمام أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل التيمي الأصبهاني الشافعي رحمه الله في كتاب التحرير في شرح صحيح مسلم: الإيمان هو التصديق، فإن عني به ذلك فلا يزيد ولا ينقص؛ لأن التصديق ليس شيئاً يتجزأ حتى يتصور كماله مرة ونقصه أخرى.

والإيمان في لسان الشرع هو التصديق بالقلب والعمل بالأركان؛ وإذا فسر بهذا طرق إليه الزيادة والنقص وهو مذهب أهل السنة.

(١) شرح جوهرة التوحيد (٥٥).

(٢) هكذا هي، ولعلها: وعمل بأركانه.

(٣) (٨٦).

وقال الإمام أبو الحسن علي بن خلف بن بطلال المالكي المغربي في شرح البخاري: مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها أن الإتيان قول وعمل، يزيد وينقص، والأدلة على ذلك ما رواه البخاري ...

قال ابن بطلال: فإيمان من لم تحصل له الزيادة ناقص.

قال: فإن قيل الإتيان في اللغة التصديق.

فالجواب: أن التصديق يكمل بالطاعات كلها؛ فما ازداد المؤمن من أعمال البر كان إيمانه أكمل، وبهذه الجملة يزيد الإتيان وينقصها ينقص، فمتى نقصت أعمال البر نقص الإتيان، ومتى زادت زاد الإتيان كمالاً، هذا توسط القول في الإتيان. وأما التصديق بالله تعالى ورسوله ﷺ فلا ينقص^(١).

وقد قال الإمام البيهقي رحمه الله عن تعلق الأعمال بالإتيان أصلاً وكمالاً قولاً بياناً شافياً نقياً في كتاب الاعتقاد والهداية: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٢-٤]، فأخبر أن المؤمنين الذين جمعوا هذه الأعمال التي بعضها تقع في القلب وبعضها باللسان وبعضها بسائر البدن وبعضها بهما أو به أو بأحدهما.

وأن الإتيان يزيد وينقص، وإذا قبل الزيادة قبل النقصان، وبهذه الآية وما في معناها من الكتاب والسنة ذهب أكثر أصحاب الحديث إلى أن اسم الإتيان يجمع الطاعات؛ فرضها ونفلها، وأنها على ثلاثة أقسام:

فقسم يكفر بتركه: وهو اعتقاد ما يجب اعتقاده، والإقرار بما اعتقده.

وقسم يفسق بتركه: أو يعصي ولا يكفر به إذا لم يجحده، وهو مفروض الطاعات كالصلاة والصيام والزكاة والحج واجتناب المحارم.

وقسم يكون بتركه مخطئاً للأفضل غير فاسق ولا كافر وهو ما يكون من العبادات

تطوعاً^(١).

ثم ذكر الآثار التي تدل على أن الإيمان قول وعمل.
ويقول الإمام الشافعي الذي يتسبب إلى مذهبه عامة الأشاعرة فيما رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: (وكان الإجماع من الصحابة والتابعين بعدهم ممن أدركناهم أن الإيمان قول وعمل ونية؛ لا يُجزئ واحد من الثلاثة بالآخر)^(٢).
وقد كان الباقلاني قد أكد على هذا المعنى كما في الإنصاف: (واعلم أنا لا ننكر أن نطلق القول بأن الإيمان عقد القلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان، على ما جاء في الأثر؛ لأنه إنما أراد بذلك أن يخبر عن حقيقة الإيمان الذي ينفع في الدنيا والآخرة؛ لأن من أقر بلسانه وصدّق بقلبه وعمل أركانه حكمنا له بالإيمان وأحكامه في الدنيا من غير توقف ولا شرط)^(٣).

وروى البيهقي بإسناده في كتاب الاعتقاد والهداية: (ثنا الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص)^(٤).
وبهذا البيان المقتضب ظهر لك المطلب الأول من هدم الأشاعرة للأشعرية.

(١) (ص ١١٥).

(٢) (٣/ ٨٨٦ - ٨٨٧).

(٣) (ص ٨٦).

(٤) (ص ١٢٠).

زيادة الإيمان ونقصانه

إن زيادة الإيمان ونقصانه عند الأشاعرة له اتصال وثيق بتعريف الإيمان؛ والمتدبر لما تقدم من فهمهم للإيمان يدرك أنَّ هناك تفاوتاً كبيراً، واختلافاً كثيراً، وهذا الخلاف والاختلاف يضيفي على أسِّ هذه المسألة أفهاماً متفاوتة وإن كان كل فرد منهم أصاب جزء من الحق.

وقد صرح البغدادي في كتابه أصول الدين بوجود هذا الخلاف على الأصل المتقدم آنفاً فقال: (كل من أثبت أن الطاعات كلها من الإيمان أثبت فيه الزيادة والنقصان، وكل من زعم أن الإيمان هو الإقرار بالفرد منع من الزيادة والنقصان فيه، وأما من قال: أنه التصديق بالقلب، فقد منعوا من النقصان فيه، واختلفوا في زيادته، فمنهم من منعها، ومنهم من أجازها.

ودليل الزيادة فيه قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيتَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤]؛ ففي هذه الآيات الست تصريح بأن الإيمان يزيد وينقص، وإذا صحَّت الزيادة فيه كان الذي زاد إيمانه قبل الزيادة أنقص إيماناً منه في حال الازدياد^(١).

وعامة الأشاعرة لهم نظرة مقاربة متباعدة في زيادة الإيمان ونقصانه، وكما قدمت من أن أحادهم قد أصاب أحاداً من معاني زيادة الإيمان ونقصانه، وبيان ذلك فيما يلي:

قال الله تعالى: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، قال الزمخشري: (أي أنزل الله في قلوبهم السكون والطمأنينة بسبب الصلح والأمن؛ ليعرفوا فضل الله عليهم؛ بتسيير الأمن بعد الخوف، والهدنة بعد القتال، فيزدادوا يقيناً إلى يقينهم، أو أنزل فيها السكون إلى

ما جاء به محمد عليه السلام من الشرائع ليزدادوا إيماناً بالشرائع مقروناً إلى إيمانهم وهو التوحيد^(١).

وقال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: (أي تصديقاً بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان)^(٢).

ونقل ابن حجر في الفتح عنه قوله في تعليقه على أثر معاذ عند البخاري (اجلس بنا نؤمن ساعة).

قال: (لا تعلق فيه للزيادة؛ لأن معاذاً إنما أراد تجديد الإيمان؛ لأن العبد يؤمن في أول مرة فرضاً، ثم يكون أبداً مجدداً كلما نظر أو فكر).

قال ابن حجر معلقاً على هذا: (وما نفاه أولاً أثبتته آخراً؛ لأن تجديد الإيمان إيمان)^(٣). قال النووي في شرحه على صحيح مسلم: (وأكثر المتكلمين زيادته ونقصانه. وقالوا: متى قبل الزيادة كان شكاً وكفراً).

قال المحققون من أصحابنا المتكلمين: نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص، والإيمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة ثمراته - وهي الأعمال - ونقصانها.

قالوا: وفي هذا توفيق بين ظواهر النصوص التي جاءت بالزيادة وأقاويل السلف^(٤). وكذا قال الغزالي، ويدر الدين العيني؛ أن من بلغ قمة التصديق فإن إيمانه لا يزيد، كما سيأتي بيانه في تقسيم الغزالي لزيادة الإيمان ونقصانه إن شاء الله.

وقد رد النووي هذه المقولة في شرحه على صحيح مسلم: (وهذا الذي قاله هؤلاء وإن كان ظاهراً حسناً، فالأظهر والله أعلم أن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة، ولذا يكون إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعترهم الشبهة)^(٥).

وهذا الذي تقدّم من القول بعدم زيادة الإيمان ونقصانه هو مذهب الماتريدية صنوان

(١) عمدة القاري (١/١١١).

(٢) (١٦/٢٦٤).

(٣) (١/٤٨).

(٤) (١/١٤٨).

(٥) (١/١٤٨).

الأشاعرة، كما هو محكي في كتاب الفقه الأكبر.

وقال بدر الدين العيني في عمدة القاري: (وقال الإمام: هذا المبحث لفظي؛ لأنَّ المراد بالإيمان إنَّ كان هو التصديق فلا يقبلها، وإنَّ كان الطاعات فيقبلها، ثم قال: الطاعات مكملية للتصديق؛ فكل ما قام من الدليل على أنَّ الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان كان مصروفاً إلى أصل الإيمان الذي هو التصديق.

وكل ما دل على كون الإيمان يقبل الزيادة والنقصان فهو مصروف إلى الكامل وهو مقرون بالعمل^(١).

ثم ردَّ على هذا على هذا القول عنده كذلك: (وقال بعض المحققين: الحق أنَّ التصديق يقبل الزيادة والنقصان بوجهين.

الأول: القوة والضعف؛ لأنَّه من الكيفيات النفسانية، وهي تقبل الزيادة والنقصان كالفرح والحزن والغضب، ولو لم يكن كذلك يقتضي أنَّ يكون إيمان النبي ﷺ وأفراد الأمة سواء، وأنَّه باطل إجماعاً، ولقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَكِنْ لَيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

الثاني: التصديق التفصيلي في أفراد ما على مجيئه به جزء من الإيمان يثاب عليه ثوابه على تصديقه بالآخر^(٢).

إلا أن ابن بطل رد على مثل هذا القول بشيء من التفصيل يزيل بعض الغموض عن هذه المسألة التي تراكم أقوال الأشاعرة عليها وتناثرها بين جلي وخفي.

فقال كما نقل عنه النووي في شرحه على صحيح مسلم: (قال ابن بطل: فإيمان من لم تحصل له الزيادة ناقص).

قال: فإن قيل: الإيمان في اللغة التصديق.

فالجواب: إنَّ التصديق يَكْمُلُ بالطاعات كلها؛ فما ازداد المؤمن من أعمال البر كان إيمانه أكمل، وبهذه الجملة يزيد الإيمان، وبنقصانها ينقص، فمتى نقصت أعمال البر نقص

(١) (١٠٨/١).

(٢) (١٠٨/١).

كمال الإيمان، ومتى زادت زاد الإيمان كمالاً، هذا توسط القول في الإيمان.

أما التصديق بالله تعالى ورسوله ﷺ فلا ينقص.

ولذلك توقف مالك رحمه الله في بعض الروايات عن القول بالنقصان؛ إذ لا يجوز نقصان التصديق؛ لأنه إذا نقص صار شكاً وخرج عن اسم الإيمان^(١).

قلت: وجه المخالفة للمذهب المتقدم؛ أن الأول جعل التصديق يزيد وينقص من حيث قوة النظر وضعفه.

أما ابن بطال؛ فقد جعل التصديق يزيد، ولا يجوز عليه النقص، كما حكاه في التأويل المروي عن الإمام مالك.

كما أنه جعل لأعمال الجوارح أثراً على الإيمان وكماله، وقد نبّه على هذا فيما حكاه عنه النووي في شرحه على صحيح مسلم: (وقال ابن بطال في باب من قال: الإيمان هو العمل. قيل: قد قدمتم أن الإيمان هو التصديق، قيل: التصديق أول منازل، ولا يسمى مؤمناً مطلقاً).

هذا مذهب جماعة أهل السنة أن الإيمان قول وعمل.

قال أبو عبيد: وهو قول مالك والثوري والأوزاعي ومن بعدهم من أرباب العلم والسنة؛ الذين كانوا مصابيح الهدى وأئمة الدين؛ من أهل الحجاز والعراق والشام وغيرهم^(٢).

وهذا الكلام المتقدم مذهب الإمام البيهقي إذ حكاه في الاعتقاد والهداية، وفصله في الجامع لشعب الإيمان^(٣).

أما الغزالي فقد كان له تفصيل غير ما تقدم في زيادة الإيمان ونقصانه؛ جمع به بين الأقوال المتقدمة كلها على طريقته؛ فقال في الإحياء: (الإيمان اسم مشترك يطلق من ثلاثة أوجه:

(١) (١٤٦/١).

(٢) (١٤٧/١).

(٣) (ص ٦).

الأول: أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف وانشرح صدره؛ وهو إيمان العوام، بل إيمان الخلق كلهم إلا الخواص. وهذا الاعتقاد عقدة على القلب، تارة تشد وتقوى، وتارة تضعف وتسترخي؛ كالعقدة على الخيط مثلاً.

والعمل يؤثر في نماء هذا التصميم وزيادته كما يؤثر الماء في نماء الأشجار؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وقال تعالى: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]. وقال ﷺ فيما يروى في بعض الأخبار: الإيمان يزيد وينقص. الإطلاق الثاني: أن يراد به التصديق والعمل جميعاً؛ كما قال ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون باباً».

وكما قال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن». وإذا دخل العمل في مقتضى الإيمان لم تخف زيادته ونقصانه، وهل يؤثر ذلك في زيادة الإيمان الذي هو مجرد التصديق، هذا فيه نظر، وقد أشرنا إلى أنه يؤثر فيه. الإطلاق الثالث: أن يراد به التصديق اليقيني على سبيل الكشف، وانشرح الصدر، والمشاهدة بنور البصيرة، وهذا أبعد الأقسام عن قبول الزيادة^(١). ثم ختم قوله ملخصاً مذهبه: (وقد ظهر في جميع الإطلاقات أن ما قالوه من زيادة الإيمان ونقصانه حق)^(٢).

أما الإمام الجويني فقد ذكر المذهبين كما في العقيدة النظامية: (الركن الثالث: في زيادة الإيمان ونقصانه؛ ذهب أئمة السلف إلى أن الإيمان معرفة بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان، فهؤلاء أدرجوا الطاعات كلها تحت اسم الإيمان، وهذا غير بعيد في التسمية؛ وقد سمى الله تبارك وتعالى الصلاة إيماناً في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ أراد الصلاة التي صلوها إلى بيت المقدس، فمن أطلق اسم الإيمان على الطاعات

(١) (١٠٧/١).

(٢) (١٠٨/١).

كلها يقول على مساق أصله: يزيد الإيمان بزيادة الطاعات، وينقص بنقصانها.
ومن قال: الإيمان هو التصديق؛ فمن علم وعرف حقاً فلا يتفاوت التصديق زادت أو
نقصت^(١).

إيمان المقلد

قال عبد القاهر البغدادي في كتابه أصول الدين: (قال أصحابنا: كل من اعتقد أركان الدين تقليداً من غير معرفة بأدلتها ننظر فيه؛ فإن اعتقد مع ذلك جواز ورود شبهة عليها وقال: لا آمن أن يرد عليها من الشبه ما يفسدها؛ فهذا غير مؤمن بالله مطيع له؛ بل هو كافر).

وإن اعتقد الحق ولم يعرف دليله واعتقد مع ذلك أنه ليس في الشبهة ما يفسد اعتقاده؛ فهو الذي اختلف فيه أصحابنا.

فمنهم من قال: هو مؤمن؛ وحكم الإسلام له لازم، وهو مطيع لله تعالى باعتقاده وسائر طاعته، وإن كان عاصياً بتركه النظر والاستدلال المؤدي إلى معرفة قواعد الدين ... ومنهم من قال: إن معتقد الحق قد خرج باعتقاده عن الكفر؛ لأن الكفر واعتقاد الحق في التوحيد والنبوات ضدان لا يجتمعان؛ غير أنه لا يستحق اسم المؤمن إلا إذا عرف الحق في حدوث العالم، وتوحيد صانعه، وفي صحة النبوة ببعض أدلته؛ سواء أحسن صاحبها العبارة عن الدلالة أو لم يحسنها؛ وهذا اختيار الأشعري، وليس المعتقد للحق بالتقليد عنده مشركاً ولا كافراً وإن لم يسمه على الإطلاق مؤمناً، وقياس أصله يقتضي جواز المغفرة له؛ لأنه غير مشرك ولا كافر^(١).

وقد ترتب على هذا القول ما حكاه نفسه في أصوله: (فإن قال قائل: ابتدار العاقل في أول حالة التكليف إلى النظر من غير تفريط في النظر فاشترمته المنية قبل انتهاء النظر فما قولكم فيه؟

قلنا: سبيله عند أئمتنا سبيل من مات في حياة؛ وسيأتي تفصيل القول في صبيان المسلمين والمشركين في التعديل والتجويز إن شاء الله.

وهذا مُكَلَّف يموت غير عالم بالله ولا نحكم له بالنار على الأصح، ولو انقضى من

أول حال التكلف زمن يسع النظر المؤدي إلى المعارف ولم ينظر مع ارتفاع الموانع واخترم بعد زمان الإمكان فهو ملحق بالكفرة، ولو مضى من أول الحال قدراً من الزمان يسع بعض النظر ولكنه لم ينظر مقصراً ثم اخترم قبل مضي الزمان الذي يسع في مثله النظر الكامل؛ فقد قال القاضي رضي الله عنه: يمكن أن لا يلحق بالكفرة إذا تبين لنا بالآخرة أنه لو ابتدأ النظر ما كان له في النظرة نظرة وكان لا يتوصل إلى مطلبه.

وقال: الأصح الحكم بكفره لموته غير عالم مع بدو التقصير منه فيما كلف^(١). وسوف نكتفي برّد هذه الفكرة الآبدة بقول بعض من علماء الأشاعرة؛ وذلك لوضوح وهائها وفساد مضمونها وقبح دعوتها؛ إذ أنّها ما أصابت دليلاً، ولا سارت على هديٍّ من كتاب وسنة، أو قول صاحب؛ بل وليس لها دليل تهتدي به، ولا أثارة من علم تقتفيه؛ ولو كان هذا الكتاب قد خُصَّ لِرَدِّ مقولاتهم على منهج أهل السنة لكان التثريب عليهم شديداً، وبيان فساد طريقتهم عجيباً، لكن الشرط رَدُّ مذهبهم بقولهم؛ إذ في هذا البيان هدم لتلك الأوهام التي ظن أهلها أنّها أصول متينة، وقواعد رزينة، وبيوتاً لا تُنال أبداً؛ فكان في ردهم على أنفسهم مطلب مقصود لإظهار أن بيتهم أوهى من بيت العنكبوت.

وعليه نقول:

قال الغزالي في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد، في التمهيد الثاني تحت قوله: إنَّ الناس أربع فرق: (الفرقة الأولى: آمنت بالله، وصدقت، واعتقدته الحق، وأضمرته، واشتغلت إما بعبادة وإما بصناعة).

فهؤلاء ينبغي أن يتركوا وما هم عليه، ولا تحرك عقائدهم باستحثاث على تعلم هذا العلم؛ فإنَّ صاحب الشرع صلوات الله عليه لم يطالب العرب في مخاطبته إياهم بأكثر من التصديق، ولم يفرق بين أن يكون ذلك بإيمان وعقد تقليدي، أو بتعين برهاني، وهذا مما عَلِمَ ضرورة من مجاري أحواله في تركيته إيمان من سبق من أجلاف العرب، إلى تصديقه ببحث وبرهان، بل بمجرد قرينة وخيلة سبقت إلى قلوبهم فقادت إلى الإذعان للحق

والانقياد للصدق، فهو لاء مؤمنون حقاً؛ فلا ينبغي أن تُشَوَّش عليهم عقائدهم؛ فإنه إذا تليت عليهم هذه البراهين وما عليها من الإشكالات وحلها لم يُؤْمَنَ أن تَعَلَّقَ بقلوبهم مشكلة من المشكلات وتستولي عليها ولا تمحى عنها بما يذكر من طرق الحل.

ولهذا لم ينقل عن الصحابة الخوض في هذا الفن؛ لا بمباحثة ولا بتدريس ولا تصنيف؛ بل كان شغلهم بالعبادة والدعوة وحمل الخلف على مرآشدهم ومصلحهم في أحوالهم وأعمالهم ومعاشهم فقط^(١).

إنَّ الغزالي قد أجرى إيمان المقلِّد على أصله وصححه ولم يردده، وأوضح ذلك في دَمِّه كل قول يزعم وجوب النظر على كل أحد حتى يصح منه الإيمان، وقد تقدم نقل كلام بعض أئمة الأشاعرة الذين هدموا هذا الأصل واعتبروه بدعة منكرة، ونزید ما وعدنا بإيراده من قول النووي، وتأيدته لكلام الشيخ أبي عمرو بن الصلاح وذلك في شرحه على صحيح مسلم تحت حديث أنس قال: «ثُمَّ بِنَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ؛ فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلِ فَيَسْأَلُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ، فَيَجَاءُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَانَا رَسُولُكَ فَرَعَمَ لَنَا أَنْكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ».

فقال: (قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله: وفيه دلالة لصحة ما ذهب إليه أئمة العلماء من أن العوامَّ المقلدين مؤمنون، وأنه يكتفي منهم بمجرد اعتقاد الحق جزماً من غير شك وتزلزل خلافاً لمن أنكر ذلك من المعتزلة؛ وذلك لأنَّه ﷺ قرر ضمناً على ما اعتمد عليه في تعريف رسالته وصدقه؛ ومجرد إخباره إياه بذلك، ولم ينكر عليه ذلك، ولا قال: يجب عليك معرفة ذلك بالنظر في معجزاتي والاستدلال بالأدلة القطعية. هذا كلام الشيخ)^(٢).

وبذا يظهر لك أنَّ الأشاعرة قد تراشقوا الحجج، وكل منهم حرص على تنكيس علم غيره حتى في مسألة الإيمان والكفر التي هي الفيصل بين النجاة والهلاك، أعاذنا الله وإياكم من الضياع والحرمان.

(١) (ص ١٥).

(٢) (١/ ١٧١).

ونختم هذا المبحث بقول البيهقي في الجامع لشعب الإيمان بعد أن ذكر بإسناده إلى عمر بن عبد العزيز قوله: عليك بدين الأعرابي والغلام في الكتابة وآله عمن سواه. قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: وهذا الذي قاله عمر بن عبد العزيز وقال غيره عن السلف في النهي عن الخوض في مسائل الكلام. فإنما لأنهم رأوا أنه لا يحتاج إليه لتبيين صحة الدين في أصله؛ إذ كان رسول الله ﷺ إنما بعث مؤيداً بالحجج؛ فكانت مشاهدتها للذين شاهدوها وبلاغها المستفيض لمن بلغه كافياً في إثبات التوحيد والنبوة معاً وعن غيرها^(١).

هل الاسم هو المسمى أم لا؟

لقد كان للأشاعرة أقوال مختلفة متباينة في إطلاق الاسم على المسمى إن كانت هي أو هي غيره على مذاهب وأقوال أحصرها في أربعة:

القول الأول: قول من قال: إن من الأسماء هي المسمى ومنها أنه غيره. قال الجويني في الإرشاد: (فصل معاني أسماء الله تعالى) (قسم شيخنا رضي الله عنه أسماء الرب سبحانه وتعالى ثلاثة أقسام:

وقال: من أسمائه ما نقول إنه هو هو؛ وهو كل ما دلت التسمية به على وجوده. ومن أسمائه ما نقول إنه غيره؛ وهو ما دلت التسمية به على فعل كخالق والرازق. ومن أسمائه ما لا يقال إنه غيره؛ وهو كل ما دلت التسمية به على صفة قديمة كالعالم والقادر).

قال الغزالي في المقصد الأسنى: (وأما قولهم إنَّ من الاسم ما لا يقال إنه المسمى، ولا يقال هو غيره؛ فهو أيضاً خطأ^(١)).

القول الثاني: من قال أن الاسم هو المسمى.

قال الجويني في الإرشاد: (وذكر بعض أئمتنا أن كل اسم هو المسمى بعينه، وصار إلى أن الرب سبحانه وتعالى إذا سُمِّيَ خالقاً فالخالق هو الاسم؛ وهو الرب تعالى؛ وليس الخالق اسماً للخلق؛ ولا الخلق اسماً للخالق؛ وطرد ذلك في جميع الأقسام. والمرضى عندنا طريقة شيخنا رضي الله عنه؛ فإن الأسماء تنزل منزل الصفات؛ فإذا أطلقت ولم تقتض نفيًا حُمِلَتْ على ثبوت متحقق.

فإذا قلنا: الله الخالق، وجب صرف ذلك إلى ثبوت وهو الخلق، وكان معنى الخالق من له الخلق، ولا ترجع من الخلق صفة متحققة إلى الذات؛ فلا يدل الخالق إلا على إثبات الخلق؛ ولذلك قال أئمتنا: لا يتصف الباري في أزله بكونه خالقاً إذ لا خلق في الأزل، ولو

وصف بذلك على معنى أنه قادرٌ كان تجوزاً؛ فخرج من ذلك أن العلم والقدرة كما كانا صفتين، فكذلك هما اسمان؛ والكلام في ذلك يؤول إلى التنازع في إطلاق لفظ ومنع إطلاقه^(١).

قال الباقلاني في الإنصاف: (ويجب أن يعلم أن الاسم هو المسمى بعينه وذاته، والتسمية الدالة عليه تسمى اسماً على سبيل المجاز؛ والدليل عليه قوله تعالى: ﴿بِزَكَّاتِكُمْ﴾ [الرحمن: ٧٨] ومعناه تبارك ربك، وأيضاً قوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، ولا يشك عاقل أن المسيح هو الله تعالى، لا قول من يقول التسييح.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ أَلْهَكُمْ إِلَّا اللَّهُ أَمَرَ آلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَتِمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقد علمنا أنهم ما كانوا يعبدون الأقوال والتسميات وإنما كانوا يعبدون الأصنام.

فأما قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقوله ﷺ: «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»؛ فالعدد في ذلك راجع إلى التسميات التي هي عبارات الاسم، فالتسمية تدل على الذات حسب دلالة الكتابة والمكتوب وما جرى هذا المجرى فلا يحل الله له أن يفتي في دين الله تعالى، نعوذ بالله من الجهل بالله تعالى وصفاته^(٢).

وقال عبد القاهر البغدادي في أصول الدين: (اختلفوا في الاسم؛ فقال أكثر أصحابنا أنه المسمى، والعبارات عنه تسميات له)^(٣).

وقد رد الغزالي على من قال: إن الاسم هو المسمى؛ مستدلاً بالآية الكريمة: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ

(١) الإرشاد (١٣٧-١٣٨).

(٢) وانظر ختام قوله (الجهل بالله تعالى وصفاته).

(٣) أصول الدين (١٣٧-١٣٨).

الْحُكْمُ لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ [يوسف: ٤٠].

فقال في المقصد الأسنى: (وأكثر أغاليط الجدلين نشؤه عدم التمييز بين معاني الأسماء المشتركة، وإذا ميزت ارتفع أكثر اختلافاتهم، فإن قيل فقد قال تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ [يوسف: ٤٠]، ومعلوم أنهم ما كانوا يعبدون المسميات.

فنقول: إن المستدل بهذا لا يفهم وجه دلالة ما لم يقل: إنهم كانوا يعبدون المسميات دون الأسماء؛ فيكون في كلامه التصريح بأن الأسماء غير المسميات؛ إذ لو قال القائل: العرب كانت تعبد الأسماء دون المسميات كان متناقضاً، ولو قال تعبد المسميات دون الأسماء كان مفهوماً غير متناقض، فلو كانت الأسماء هي المسميات لكان القول الأخير كالأول.

ثم يقال أيضاً معناه أن اسم الآلهة التي أطلقوها على الأصنام كان اسماً بلا مسمى؛ لأن المسمى هو المعنى الثابت في الأعيان من حيث دل عليه اللفظ، ولم تكن الأصنام آلهة ثابتة في الأعيان، ولا معلومة في الأذهان، بل كانت أساميها موجودة في اللسان، فكانت أسامي بلا معان؛ ومن سمى باسم الحكيم ولم يكن حكيماً وفرح به، قيل: فرح بالاسم، إذ ليس وراء الاسم معنى؛ وهذا هو الدليل على أن الاسم غير المسمى؛ لأنه أضاف الاسم إلى التسمية، وأضاف التسمية إليها فجعلها فعلاً لهم؛ فقال: أسماء سميتوها: يعني أسماء حصلت بتسميتهم وفعلهم وأشخاص الأصنام لم تكن هي الحادثة بتسميتهم وفعلهم وأشخاصهم.

فإن قيل فقد قال تعالى: ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [الأعلى: ١] والذات هي المسيحة دون الاسم.

قلنا: الاسم ههنا زيادة على سبيل الصفة وعادة العرب جارية بمثله^(١).

وقال في نفس الكتاب: (وأما هذا الاستدلال وجوابهم عنه بأن الاسم والمسمى واحد وإنما أريد بالاسم ههنا التسمية فقط من وجهين)^(١).

القول الثالث: قول من قال إن الاسم هو الصفة.

قال عبد القاهر البغدادي في أصول الدين: (وقد نص أبو الحسن الأشعري على هذا القول في كتاب تفسير القرآن وذكر في كتاب الصفات أن الاسم هو الصفة وقسمه تقسيم الصفات)^(٢).

وقال الإمام البيهقي في الاعتقاد والهداية: (ومن أصحابنا من ذهب إلى أن جميع أسمائه لذاته الذي له صفات الذات وصفات الفعل؛ فعلى هذا الاسم والمسمى في الجميع واحد. والله أعلم. وعلى هذه الطريقة يدل كلام المتقدمين من أصحابنا)^(٣).

القول الرابع: من قال أن الاسم غير المسمى.

قال الجرجاني في شرح المواقف: (قال الأمدى: اتفق العقلاء على المغايرة بين التسمية والمسمى؛ وذهب أكثر أصحابنا إلى أن التسمية هي نفس الأقوال الدالة، وأن الاسم هو نفس المدلول، ثم اختلف هؤلاء؛ فذهب ابن فورك وغيره إلى أن كل اسم هو المسمى بعينه؛ فقولك الله قول دال على اسم هو المسمى

والناس قد طَوَّلُوا في هذه المسألة، وهو عندي فضول؛ لأن الاسم هو اللفظ المخصوص، والمسمى ما وضع ذلك اللفظ بإزائه؛ فنقول: الاسم قد يكون غير المسمى؛ فإن لفظ الجدار مغاير لحقيقة الجدار، وقد يكون عينه؛ فإن لفظ اسم للفظ الدال على المعنى المجرد عن الزمان ومن جملة الألفاظ لفظ الاسم اسماً لنفسه فاتخذ ههنا الاسم أو المسمى)^(٤).

وقال الغزالي في المقصد الأسنى: (فإن قال قائل: الخالق وصف؛ وكل وصف فهو إثبات؛ وليس في مضمون هذا اللفظ إثبات سوى الخلق، والخلق غير الخالق؛ وليس في

(١) المقصد الأسنى (٢٥).

(٢) أصول الدين (١٣٧-١٣٨).

(٣) الاعتقاد والهداية (٤٢).

(٤) (٢٢٩-٢٣١) من حاشية كتاب أصول الدين (١٣٧).

الخالق وصف حقيقي في الخلق؛ فلذلك قيل أنه يرجع إلى غير المسمى.
فنقول: قول القائل الاسم يفهم غير المسمى متناقض؛ كقول القائل الدليل يعرف غير المدلول فإن المسمى عبارة عن مفهوم الاسم، فكيف يكون المفهوم غير المسمى والمسمى غير المفهوم.

وأما قوله: إن الخالق لا وصف له من الخلق، والكاتب لا وصف له من الكتابة؛ فليس كذلك؛ والدليل على أن له وصفاً منه، يوصف به مرة وينفى عنه أخرى، والإضافة وصف للمضاف ينفي ويثبت كالبياض الذي ليس بمضاف؛ فمن عرف زيداً وبكراً ثم عرف أن زيداً أبٌ لبكرٍ فقد عرف شيئاً لا محالة؛ وهذا الشيء إما وصف أو موصوف؛ وليس هو ذات الموصوف بل هو وصف قائم بنفسه بل هو وصف لزيد؛ فالإضافات من قبيل الأوصاف للمضافات، إلا أن مضمونها لا يعقل إلا بقياس بين شيئين، وذلك لا يخرجها عن كونها أوصافاً^(١).

إن هذا المعنى القريب مما ذهب إليه بعض المعتزلة قد ردَّ عليه الغزالي في المقصد الأسنى فقال: (وقد استدلل القائلون بأن الاسم غير المسمى بقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ويقوله ﷺ: «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة». وقالوا: لو كان الاسم هو المسمى؛ لكان مسمى تسعة وتسعين وهو محال؛ لأنَّ المسمى واحد؛ فاضطر أولئك إلى الاعتراف ههنا بأن الاسم غير المسمى.
وقالوا: يجوز أن يرَدَ بمعنى التسمية لا بمعنى المسمى؛ كما سلّم الآخرون بأن الاسم قد يرد بمعنى المسمى وإن كان هو غير المسمى في الأصل، وعليه نزلوا قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

ولم يحسن كل واحد في الفريقين في الاستدلال والجواب جميعاً.

أما قوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، فقد ذكرنا ما فيه وما عليه^(١).
وأما هذا الاستدلال وجوابهم عنه بأن الاسم أو المسمى واحد وإنما أريد بالاسم ههنا التسمية فقط من وجهين:

أحدهما: أن من يقول الاسم هو المسمى لا يعجز عن أن يقول: ههنا المسمى تسعة وتسعون؛ لأن المراد بالمسمى مفهوم الاسم عند هذا القائل، ومفهوم العليم غير مفهوم التقدير والقدوس والخالق وغير ذلك؛ بل لكل اسم مفهوم ومعنى على حياله، وإن كان الكل يرجع إلى وصف ذات واحدة؛ فكأن هذا القائل يقول: الاسم هو المعنى؛ ويمكن أن يقول: لله تعالى المعاني الحسنة؛ فإن التسميات هي المعاني فيها كثرة لا محالة.
والثاني: إن قول المراد بالاسم ههنا التسمية خطأ؛ فإننا قد بينّا التسمية ذكر الاسم أو وصفه، والتسمية تتعدد وتكثر بكثرة التسمين.

وإن كان الاسم كما أن الذكر والعلم يكثر بكثرة الذاكرين والعالمين.
وإن كان المذكور والمعلوم واحداً؛ فكثرة التسمية لا تقتصر إلى كثرة الأسماء؛ لأن ذلك يرجع إلى أفعال التسمين؛ فما أريد بالأسماء هنا التسميات، بل أريد الأسماء، والأسماء هي الألفاظ الموضوعية الدالة على المعاني المختلفة؛ فلا حاجة إلى التعسف في التأويل.
قيل: الاسم هو المسمى أو لم يقل^(٢) فهذا القدر يكفيك في كشف هذه المسألة لقلة جداوها لا تستحق هذا الإطناب؛ ولكن قصدنا بالشرح تعليق طرق التعريف لتستعمل في مسائل أهم من هذه المسألة؛ فإن أكثر تطواف النظر في هذه المسألة حول الألفاظ دون المعاني^(٣).

القول الخامس: من جمع بين هذه الأقوال المختلفة على تفصيل:
لقد قام الإمام البيهقي في الاعتقاد والهداية بالجمع بين شتات الأقوال على تفصيل، رَجَى بذلك رفع تفاوت الأفهام في باب الافتراض العقلي في هذه المسألة فقال: (قال الله

(١) قلت: يعني ما سبق بيانه ص (٢٣ و ٢٤) من كتاب المقصد الأسنى فانظره.

(٢) هكذا النص.

(٣) المقصد الأسنى (٢٥).

جل ثناؤه: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ
الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

فأشار في هذه الآيات إلى فصل أسماء الذات من أسماء الفعل، على ما نبينه إلى سائر ما ذكر فقال: (فأشار في هذه الآيات إلى فصل أسماء الذات من أسماء الفعل، على ما نبينه إلى سائر ما ذكر في كتابه من أسماء الذات وأسماء الفعل، فله عز اسمه أسماء وصفات، وأسماء صفاته، وصفاته أوصافه؛ وهي على قسمين:
أحدها: صفات ذات؛ والآخر: صفات فعل.

فصفات ذاته كوصف ما يستحقه فيما لم يزل ولا يزال وهو على قسمين:
أحدها: عقلي، والآخر: سمعي.

فالعقلي: ما كان طريق إثباته أدلة العقول مع ورود السمع به وهو على قسمين:
أحدهما: ما يدل خبر المخبر به عنه، ووصف الواصف به له على ذاته، كوصف الواصف له بأنه شيء ذات موجود قديم إله ملك قدوس جليل عظيم عزيز متكبر، والاسم والمسمى في هذا القسم واحد.

والثاني: ما يدل خبر المخبر به عنه ووصف له به على صفات زائدات على ذاته قائمات به، وهو كوصف الواصف له بأنه حي عالم قادر مريد سميع بصير متكلم باق، فدلّت هذه الأوصاف على صفات زائدة على ذاته قائمة به؛ كحياته وعلمه وقدرته وإرادته وسمعه وبصره وكلامه وبقائه، والاسم في هذا القسم صفة قائمة بالمسمى، لا يقال إنّها هي المسمى.

وأما السمعي فهو ما كان طريق إثباته الكتاب والسنة فقط؛ كالوجه واليدين والعين وهذه أيضاً صفات قائمة بذاته لا يقال فيها إنها هي المسمى ولا غير المسمى؛ ولا يجوز تكييفها؛ فالوجه له صفة وليست بصورة، واليدان له صفتان وليستا الجارحتين، والعين له صفة وليست بحدقة؛ وطريق إثباتها له صفات ذات ورود خبر الصادق به.

وأما صفات فعله فهي صفات مشتقة من أفعال ورد السمع بها؛ لأن الأفعال التي اشتقت منها لم تكن في الأزل؛ وهو كوصف الواصف له بأنه خالق رازق محيي مميت منعم

مفضل^(١) فالتسمية في هذا القسم إن كانت من الله عز وجل فهي صفة قائمة بذاته، وهو كلامه لا يقال إنها المسمى ولا غير المسمى.

وإن كانت التسمية من المخلوق فهي فيها غير المسمى، ومن أصحابنا من ذهب إلى جميع أسمائه لذاته الذي له صفات الذات وصفات الفعل فعلى هذا الاسم والمسمى في الجميع واحداً. والله أعلم.

وعلى هذا يدل كلام المتقدمين من أصحابنا ... ثنا يونس بن عبد الأعلى قال سمعت الشافعي يقول: إذا سمعت الرجل يقول: الاسم غير المسمى فاشهد عليه بالزندقة^(٢).

وقد ردَّ الباقلاني على من قال: إن الصفات ليست هي هو في الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به: (والدليل على أن صفاته لا يقال لها هي هو: أنها لو كانت هي هو لكانت خالقة فاعلة مثله؛ فلا يجوز أن يقال هي هو، ويدل على صحة هذا المعنى قول علي عليه السلام في القرآن: ليس بخالق ولا مخلوق؛ لأنه لو جعله خالقاً كان إلهاً ثانياً مع الله، ولو جعله مخلوقاً لوجب أن يكون الباري بلا كلام ثم خلق كلامه بعد، وذلك لا يصح لأن صفات ذاته قديمة بقدم ذاته)^(٣).

وقال: (وإنما قلنا صفات إن صفات ذاته ليست بأغيار له، ولا هو غير صفاته، ولا صفاته متغايرة في أنفسها لأن حد الغَيْرَيْن ما يجوز مقارنة أحدهما الآخر إما بزمان أو بمكان وهذا يستحيل تصويره في الله تعالى وصفات ذاته، فافهم وتزيد التحقيق. وفقنا الله وإياك وجميع المسلمين. آمين يا رب العالمين).

وأخيراً نذكر كلام أبي بكر الإسفراييني في التبصير في الدين الذي لم يرضى ما سبق

(١) يجب على القاريء التنبيه إلى أن هذه الصفات اتصف بها الله تبارك وتعالى قبل تعلقها بالموجودات والمخلوقات، لكن هذا يلزم من أثبت ذلك على باب إثبات الأسماء والصفات على السواء في إثبات ما يطلقون عليه قيام الحوادث بذات الله تعالى: لأن السمع يلزم منه سمع السامع للأصوات كلها على باب تجددتها. وكذا القول في المبصرات وغيرها. ولما لم يكن الغرض تتبع أقوالهم بل مجرد بيانها اكتفي بمثل هذا التنبيه.

(٢) (٤١).

(٣) الإنصاف (٥٩-٦٠)، مسألة في بيان أن صفات الله قديمة.

نقله من أقوال فقال: (وأن تعلم أنه لا يجوز فيما ذكرناه من صفات القديم سبحانه أن يقال أنها هي هو أو غيره، ولا هي هو ولا هي غيره، ولا أنها موافقة أو مخالفة، ولا أنها تباينية أو تلازمية، أو تتصل به أو تنفصل عنه، أو تشبهه أو لا تشبهه.

ولكن يجب أن يقال: أنها صفات له موجودة به قائمة بذاته، مختصة به، وإنما قلنا لا هي هو؛ لأن هذه الصفات لو كانت هي هو لم يجز أن يكون هو عالماً، والقدرة لا تكون قدرة. ولا موصوفاً بشيء من هذه الصفات.

وإنما قلنا لا يقال أنها غيره؛ لأن الغَيْرَيْن يجوز وجود أحدهما مع عدم الآخر، ولما استحال هذا المعنى في الذات والصفات لم يجز فيه الخلاف المغاير.

وإنما قلنا: لا هي هو ولا هي غيره؛ لأن في نفي كل واحد منهما إثبات الآخر، وقد بينا استحالة الإثبات فيه، وإنما قلنا لا يقال أنها توافقه، أو تخالفه، أو تباينه، أو تشبهه، لأن جميع ذلك يتضمن المغايرة، وذلك يتضمن جواز عدم أحدهما مع وجود الآخر؛ وذلك محال.

وأن تعلم أن ما يمتنع إطلاقه من هذه العبارات التي ذكرناها على الذات والصفات، يمتنع إطلاقها أيضاً على كل صفة منها مع سائر الصفات؛ فلا يجوز أن يقال: علمه قدرته، ولا أن يقال: أنه غيرها أو يخالفها أو يوافقها أو يشبهها أو لا يشبهها، لأن جميع ذلك يتضمن إثبات المغايرة وذلك يتضمن جواز وجود أحدهما مع عدم الآخر؛ وذلك محال في الصفات بعضها مع بعض، وقد نبه رسول الله ﷺ في خبر عمران بن الحصين على ما يتضمن هذا المعنى الذي وصفناه حين قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره» وذلك إثبات الصفات ونفي المغايرة بينها.

وأن تعلم أن كل صفة قامت بذات الباري جل جلاله لم تكن إلا أزلية قديمة، لما قد بينا قبل أن حدوث الحوادث في ذاته لا يجوز^(١).

مع كل هذا التباين بين الأقوال، وما يترتب على كل قول من مفساد شرعية وعقلية يظهر فساده بَرَدٌ بعضها على بعض، وثمرة ذلك ما قال الغزالي في فيصل التفرقة: (ولعل

صاحبه يميل من سائر المذاهب إلى الأشعري؛ ويزعم أن مخالفته في كل ورد وصدر كفر من الكفر الجلي، فاسأله من أين ثبت له أن يكون الحق وفقاً عليه حتى قضى بكفر الباقلاني إذا خالفه في صفة البقاء لله تعالى وزعم أنه ليس وصفاً لله تعالى زائداً على الذات؛ ولم صار الباقلاني أولى بالكفر بمخالفته الأشعري من الأشعري بمخالفته الباقلاني؟!

ولم صار الحق وفقاً على أحدهما دون الثاني؟!
أكان ذلك لأجل السبق في الزمان؟! فقد سبق الأشعري غيره من المعتزلة فليكن الحق للسابق عليه.

أم لأجل التفاوت في الفضل والعلم؟!
فبأي ميزان ومكيال قدر درجات الفضل حتى لاح له أن لا أفضل في الوجود من متبوعه ومقلده؟!

فإن رخص للباقلاني في مخالفته فلم حجر على غيره؟!
فما الفرق بين الباقلاني والكرائسي والقلاسي وغيرهم؟!
وما مدرك التخصيص بهذه الرخصة؟!

وإن زعم أن خلاف الباقلاني يرجع إلى لفظ لا تحقيق وراءه؛ كما تعسف بتكلفه بعض المتعصبين زاعماً أنها جميعاً متوافقان على دوام الوجود والخلاف في أن ذلك يرجع إلى الذات أو إلى وصف زائد عليه خلاف قريب لا يوجب التشديد، فما باله يشدد القول على المعتزلي في نفيه الصفات وهو معترف بأن الله تعالى عالم محيط بجميع المعلومات قادر على جميع الممكنات، وإنما يخالف الأشعري بأنه عالم وقادر بالذات أو بصفة زائدة، فما الفرق بين الخلافين؟!

وأي مطلب أجل وأخطر من صفات الحق سبحانه وتعالى في النظر فيها وإثباتها؛ فإن قال: إنما أكفر المعتزلي لأنه يزعم أن الذات الواحدة تصدر منها فائدة العلم والقدرة والحياة، وهذه صفات مختلفة بالحد والحقيقة.

والحقائق المختلفة تستحيل أن توصف بالاتحاد أو تقوم مقامها الذات الواحدة؛ فما باله لا يستبعد من الأشعري قوله إن الكلام صفة زائدة قائمة بذات الله تعالى مع كونه

واحداً هو توراة وإنجيل وزبور وقرآن، وهو أمر ونهي وخبر واستخبار وهذه حقائق مختلفة. وكيف لا؛ وحد الخبر ما يتطرق إليه التصديق والتكذيب ولا يتطرق ذلك إلى الأمر والنهي، فكيف تكون حقيقة واحدة يتطرق إليها التصديق والتكذيب ولا يتطرق فيجتمع النفي والإثبات على شيء واحد، فإن تخبط في جواب هذا أو عجز عن كشف الغطاء فيه؛ فالعلم أنه ليس من أهل النظر وإنما هو مقلد^(١).

(١) فيصل التفرقة من سلسلة القصور العوالي (١٢٦).

معنى لا إله إلا الله

قال عبد القاهر البغدادي في أصول الدين: (واختلف أصحابنا في معنى الإله؛ فمنهم من قال: إنه مشتق من الإلهية، وهي قدرته على اختراع الأعيان، وهو اختيار أبي الحسن الأشعري).

وعلى هذا يكون الإله مشتقاً من صفة.

وقال القدماء من أصحابنا: إنه يستحق هذا الوصف لذاته، وهو اختيار الخليل بن أحمد المبرد، وبه نقول^(١).

قال الباقلاني في الإنصاف: (والتوحيد له هو: الإقرار بأنه ثابت موجود، وإله واحد فرد معبود، ليس كمثله شيء، على ما قرر به قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ [الشورى: ١١]^(٢).

قال البيجوري في تحفة المريد: (إنَّ الجملة الأولى نفت الألوهية عن غيره تعالى وأثبتها له تعالى، وحقيقة الألوهية العبادة بحق، ويلزم منها استغناء الإله عن كل ما سواه ومفتقر إليه كل ما عداه، فمعنى لا إله إلا الله الحقيقي: لا معبود بحق إلا في الواقع إلا الله، ومعناه بطريق اللزوم لا مستغنياً عن كل ما سواه ومفتقراً إليه كل ما عداه إلا الله).

فتفسير الشيخ السنوسي الذي ذكره في الصغرى باللازم لا بالحقيقة، وإنما اختاره لكون استلزامه للعقائد المتقدمة أظهر من استلزام المعنى الحقيقي لها^(٣).

قال السنوسي في أم البراهين: (إذ معنى الألوهية: استغناء الإله عن كل ما سواه؛ وافتقار كل ما عداه إليه؛ فمعنى لا إله إلا الله: لا مستغنى عن كل ما سواه ومفتقراً إليه كل

(١) (١٤٥).

(٢) (٣٤).

(٣) (١٤٠).

ما عداه إلا الله تعالى^(١).

وقال الدسوقي في الشرح على أم الباهين: (أي لأن معنى الألوهية: الغني عن غيره عموماً، وافئدة الغير إليه عموماً).

وأورد على المصنف بأنه يلزم على تعريف الألوهية بما ذكر في الدور؛ لأن معرفة الألوهية متوقفة على معرفة الإله؛ لأنه أخذ جزءاً في تعريفها، والحال أن معرفة الإله متوقفة على معرفة الألوهية لاشتقاقه منها، ومعرفة المشتق متوقفة على معرفة المشتق منه. وأجيب بأن هذا تعريف لفظي؛ يقال لمن يعرف الإله ولم يعرف الألوهية، أو بأن الإله جامد ولا يتوقف على الألوهية إلا لو كان مشتقاً، أو أن المراد بالإله الذات بقطع النظر عن اتصافها بالألوهية).

قال الجويني في الإرشاد: (وقال بعض أهل اللغة: هو من التأله وهو التعبد، فالله معناه: المقصود بالعبادة)^(٢).

قال محمد الدسوقي في حاشيته على أم الباهين: ((قوله: نشهد أن لا إله إلا الله)، والمراد وحده في ذاته وصفاته؛ فهي نفى للشريك فيها)^(٣).

قال الباقلاني في الإنصاف: (والإيمان بالله تعالى يتضمن التوحيد له سبحانه، والوصف له بصفاته، وهو نفى النقص عنه الدالة على حدوث من جازت عليه).

والتوحيد له هو: الإقرار بأنه ثابت موجود، وإله واحد معبود، ليس كمثله شيء على ما قرر به قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ كَمَا لَمْ يُحَدِّثْ إِلَى اللَّهِ إِلَهًا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]^(٤) ^(٥).

وفي هذا الكلام يبين الباقلاني أن الله واحد لا شريك له، له صفات الكمال المستحق للعبادة دون سواه.

(١) (٢١٠).

(٢) (١٣٨).

(٣) (٩).

(٤) (٣٤).

(٥) في كلام الباقلاني توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات.

صفة الوجود والقديم

قال محمد الدسوقي في حاشيته على أم البراهين معلقاً على قول السنوسي: (لكن لما كان الوجود توصف به الذات في اللفظ؛ فيقال ذات مولانا جل وعز موجودة صح أن يعد صفة على الجملة، وأما على مذهب من جعل الوجود زائداً على الذات كالإمام الرازي فعده من الصفات صحيح لا تسامح فيه.

ومنهم من جعله زائداً على الذات في الحادث دون القديم وهو مذهب الفلاسفة. الأصح أن القديم صفة سلبية أي ليست بمعنى موجود في نفسها كالعلم مثلاً. وإنما هو عبارة عن سلب العدم السابق الوجود، وإن شئت قلت: هو عبارة عن عدم الأولية).

فقال محمد الدسوقي: ((قوله: دون القديم) أي فإن وجوده ليس زائداً على ذاته بل وجوده عين ذاته.

وذلك أنهم يقولون إن القديم تبارك وتعالى واجب الوجود؛ وواجب الوجود لا يكون إلا واحداً من كل وجه، فلو زاد وجوده عليه لتكثر؛ لأن الموصوف عندهم يتكثر بتكثير صفاته؛ والتكثير يؤدي للتركيب المؤدي للإمكان، وهو مناف لوجوب الوجود.

وظهر مما قرناه أن الشارح ذكر ثلاثة أقوال في الوجود:

الأول: أن الوجود عين الموجود في القديم والحادث؛ وهو مذهب الأشعري. والثاني: أن الوجود زائد على الذات؛ قديمة كانت أو حادثة؛ بمعنى أنه أمر اعتيادي؛ وهو مذهب الرازي.

والثالث: التفصيل بين القديم والحادث؛ فهو عين الموجودة في القديم وزائد عليه في الحادث؛ وهو مذهب الفلاسفة.

وبقي قول القاضي وإمام الحرمين: (أن الوجود حال في نفسها). (قوله: الأصح أن القدم صفة سلبية): مقابله ما سيذكره في البقاء؛ أنه صفة نفسية،

ومن القول بأنه صفة معنى، وكلا القولين قد بين الشارح فيما يأتي أنه لا يصح عقلاً. وقضية قوله: أن القدم صفة سلبية؛ أن الصفة تطلق عليه حقيقة لا تجوزاً، وهو كذلك، خلافاً لمن قال إن إطلاق الصفة على السلوب والإضافة تجوز. نعم في كلام السعد والسيد أن المتصف بالقدم حقيقة الوجود، وأما اتصاف الموجود فهو باعتبار اتصاف الوجود به.

قوله: (قوله: سلب العدم) فيه أن القدم على هذا التعريف صفة ثبوتية؛ لأن نفي النفي ثبوت لا صفة سلبية، وحينئذ فلا يناسب قول الشارح: الأصح أن القدم صفة سلبية^(١).

قال عبد القاهر البغدادي في أصول الدين: (واختلفوا أيضاً في صفة القديم:

فقال عبد الله بن سعيد والفلاسي: إنه قديم بمعنى قائم به.

وقال أبو الحسن الأشعري: إنه قديم لذاته.

وأجمع أصحابنا على أنه باق ببقاء يقوم به، غير القاضي أبي بكر بن الطيب فإنه قال:

بأن الله باق لنفسه، وبه نقول^(٢).

قال ابن الهمام في المسامرة في العقائد المنجية في الآخرة: (الأصل الثاني: أنه تعالى قديم

لا أول له؛ أي لم يسبق وجوده عدمه؛ لأنه لو كان حادثاً افتقر إلى محدث؛ فينتقل الكلام إلى ذلك المحدث؛ فإن كان قديماً فهو المراد بالله تعالى)^(٣).

قال شارحها في المسامرة: (وهذا التفسير للقدم ينبه على أن القدم في حقه بمعنى

الأزلية التي هي كون وجوده غير مستفتح، لا بمعنى تطاول الزمن؛ فإن ذلك وصف

للمحدثات؛ كما في قوله: ﴿حَقَّقَ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]، وليس القدم معنى زائد على الذات).

قلت: قال الغزالي في الاقتصاد في الاعتقاد: (ولا نعني بقولنا قديم إلا أن وجوده غير

(١) (٧٥).

(٢) (١٤٥).

(٣) (٣٣-٣٤).

مسبوق بعدم؛ فليس تحت لفظ القديم إلا إثبات موجود ونفي عدم سابق.
 فلا تظن أن القديم معنى زائد عن الذات فيلزمك أن تقول ذلك المعنى أيضاً قديم
 بقدم زائد عليه وتسلسل إلى غير نهاية^(١).
 وقد رجح الرازي في ظاهر كلامه أن القدم لذاته وليس صفة؛ فقال في الأربعين:
 (وكل ما كان واجب الوجود لذاته فإن حقيقته لا تقبل العدم أصلاً، وكل ما كان كذلك
 فإنه يجب أن يكون قديماً أزلياً باقياً أبدياً)^(٢).

(١) (٣٨-٣٩).

(٢) (٩١).

قولهم في صفة الخالق

قال أبو المعالي الجويني: (ولذلك قال أئمتنا: لا يتصف الباري في أزله بكونه خالقاً إذ لا خلق في الأزل، وصف بذلك على معنى أنه قادر كان تجوزاً؛ فخرج من ذلك أن العلم والقدرة كما كانا صفتين فكذا هما اسمان؛ والكلام في ذلك يؤول إلى التنازع في إطلاق لفظ ومنع إطلاقه)^(١).

وقد رد على هذا المعنى الباقلاني في الإنصاف: (فإن قيل: فليس ثم إلا خالق أو مخلوق، قلنا: نعم؛ ولكن خالق قديم بصفات ذاته؛ ومخلوق حادث بصفات ذاته التي توجد بعد أن لم تكن، وتعدم بعد أن كانت، وصفات القديم لا تتصف بوجود بعد عدم، ولا بالعدم بعد الوجود)^(٢).

قلتُ: وقد رد الغزالي على هذا القول بشدة في كتابه المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى فقال: (أما الأسماء التي ترجع إلى الفعل؛ كالخالق والمصور والوهاب فقد قال قوم: يوصف بأنه خالق في الأزل. وقال آخرون: لا يوصف.

وهذا خلاف لا أصل له فإن الخالق يطلق لمعنيين: أحدهما: ثابت في الأزل قطعاً.

والآخر متغير قطعاً؛ ولا وجه للخلاف فيهما؛ إذ السيف يسمى قاطعاً وهو في الغمد؛ ويسمى قاطعاً حال حَزَّ الرقبة؛ وهو في الغمد قاطع بالقوة؛ وعند الحَزْ قاطع بالفعل، والماء في الكوز مُرٌّ ولكن بالقوة؛ وفي المعدة مُرٌّ بالفعل؛ ومعنى كون الماء في الكوز مروباً أنه بالصفة التي يحصل بها الإرواء عند مصادفة المعدة وهي صفة المائية.

والسيف في الغمد قاطع أي هو بالصفة التي بها يحصل القطع إذا لاقى المحل وهي

(١) الإرشاد (١٣٧-١٣٨).

(٢) الإنصاف (٣٧).

الحدة إذ لا يحتاج إلى أن يستجد وصفاً آخر في نفسه.

فالباري سبحانه في الأزل خالق بالمعنى الذي يقال مرو؛ وهو أنه بالصفة التي بها يصح الفعل، والخلق هو بالمعنى الثاني غير خالق؛ أي الخلق غير صادر منه، وكذلك يكون في الأبد سماه غيره بذلك الاسم أو لم يسم^(١).

وقال الغزالي في المقصد الأسنى: (ولو قال القائل: ليس الله موصوفاً بكونه خالقاً كفر، كما لو قال: ليس بكونه عالماً كفر.

ولكن إنما وقع هذا القائل في هذا الخطب لأن الإضافة عند المتكلمين غير معدودة في جملة الأعراض مع أنهم إذا قيل لهم ما معنى العَرَض؟

قالوا: إنه الموجود في محل لا يقوم بنفسه.

وإذا قيل لهم هل الإضافة موجودة أم لا.

قالوا: بلى؛ إذ لا يمكنهم أن يقولوا الأبوة معدومة؛ إذ لو كانت الأبوة معدومة لم يكن في العالم أب.

وإذا قيل لهم: الأبوة تقوم بنفسها؟ قالوا: لا؛ فيضطرون إلى الاعتراف بأنها موجودة في محل، وأنها لا تقوم بنفسها بل تقوم في محل؛ ويعترفون بأن العَرَض عبارة عن موجود محل؛ ثم يعودون وينكرون أنها عَرَض^(٢).

وقد بين أبو المظفر الإسفراييني أن صفات الله تبارك وتعالى التي تقوم به أزلية قديمة، وذكر ذلك على وجه الإجمال في التبصير في الدين: (وأن تعلم أن كل صفة قامت بذات الباري جل جلاله لم تكن إلا أزلية قديمة)^(٣).

والغرض هنا بيان أن اتصاف الله تبارك وتعالى بالخالق صفة قديمة قائمة بذاته، وهذا من لزوم جمع قوله.

وقد بين الرازي في الأربعين في أصول الدين: (والذي يحقق هذا السؤال: هو أن

(١) (٢٢).

(٢) (١٩ - ٢٠).

(٣) (١٤١).

القدرة وإن لم تكن موجبة لوجود الفعل عنها إلا أنها موجبة لصحة وجود الفعل، ثم إنَّه تعالى قادر في الأزل مع أن صحة الفعل غير حاصلة في الأزل^(١).

صفة الوجه واليدين والعين

لقد كان للأشاعرة في إثبات صفة الوجه واليدين والعين لله تبارك وتعالى مذاهب متعددة؛ رأيت عرضها على باب البيان المجمل لمذاهبهم وتنوعها ورد كل مذهب على غيره فيما ذهب إليه، وكذا تباين مذهب المتأخرين عن مذهب أكثر المتقدمين في هذه الصفات أبينها على أصل مذهبي:

الأول: من أول هذه الصفات.

قال الجويني في الإرشاد: (والذي يصح عندنا حمل اليدين على القدرة، وحمل العين على البصر، وحمل الوجه على الوجود ... وما يوضح ما قلناه: أن آدم صلوات الله عليه ما استحق أن يسجد له لما خصص به من الخلق باليدين، وذلك متفق عليه، مقضي به في موجب العقل، وإنما لزم السجود اتباعاً لأمر الله، فإذا وجب على كل محقق القطع بأن آدم عليه السلام لم يسجد له لأنه خلق باليدين، وظاهر الآية يقتضي اقتضاء السجود لاختصاص آدم بما تضمنته الآية، فالظاهر متروك إذاً، والعقل حاكم بأن الذي يقع الخلق به القدرة)^(١).

وقال في صفة العين من نفس الكتاب: (فأما الآية المشتملة على ذكر العين فمزالة عن الظاهر اتفاقاً؛ وكذلك قوله تعالى في الأنبياء عن سفينة نوح عليه السلام: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، ولم يثبت أحد من المتمين إلى التحقيق أعيناً لله تعالى، والمعنى بالآية: أنها تجري بأعيننا، وهي منا بالمكان المحوط بالملائكة والحفظ والرعاية)^(٢).

بل وزاد معنى غريباً للنص القرآني؛ فقال من نفس الكتاب والموضع: (وقيل المراد بالأعين في هذه الآية: الأعين التي انفجرت من الأرض وأضيفت إلى الله تعالى ملكاً وهذا غير بعيد.

(١) (١٤٦).

(٢) (١٤٧).

وأما قوله تعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٢٧) [الرحمن: ٢٧]، فلا وجه لحمل الوجه على صفة؛ إذ لا تختص بالبقاء بعد فناء الخلق صفة الله تعالى بصفاته الواجبة، فالأظهر حمل الوجه على الوجود.

وقيل المراد بالوجه: الجهة التي يراد بها التقرب إلى الله تعالى؛ يقال فعلت ذلك لوجه الله تعالى، معناه جهة امتثال أمر الله، فالمعنى بالآية أن كل ما لم يُرَدَّ به وجه الله مُحِبُّطٌ).

الثاني: من أثبت هذه الصفات.

قال الجويني في الإرشاد: (ذهب بعض أئمتنا إلى أن اليتين والعين والوجه صفات ثابتة للرب تعالى، والسبيل إلى إثباتها السمع دون قضية العقل)^(١).

لقد ذهب إلى هذا المذهب جملة من علماء الأشاعرة الذين يعول عليهم كثير من المتأخرين في اعتماد مذهبهم وعرض حججهم، بل جعلوا من قولهم عمدة في أغلب الأوقات، وفصل في رأيهم بين المختلفين من أهل مذهبهم.

قال أبو بكر الباقلاني في الإنصاف: (نص تعالى على إثبات أسمائه وصفاته ذاته، وأخبر أنه ذو الوجه الباقي بعد أن تقضى الماضيات؛ كما قال عز وجل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وقال: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٢٧) [الرحمن: ٢٧]، واليتين اللتين نطق بإثباتهما له القرآن في قوله عز وجل: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وأنها ليست بجارحتين ولا ذوي صورة وهيئة.

والعينين اللتين أفصح بإثباتهما من صفاته القرآن وتواترت بذلك أخبار الرسول عليه السلام فقال عز وجل: ﴿وَلُصِّصَ عَلَى عَيْنَيَّ﴾ (٣٩) [طه: ٣٩]، و﴿تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وأن عينه ليست بحاسة من الحواس ولا تشبه الجوارح والأجناس)^(٢).

(١) (ص ١٤٦).

(٢) (ص ٢٣).

ومن أثبت ذلك وقال به الإمام البيهقي كما في الاعتقاد والهداية: (ذكر آيات وأخبار وردت في إثبات صفة الوجه واليدين والعين؛ وهذه صفات طريق إثباتها السمع؛ فثبتها لورود خبر الصادق بها ولا نكفيها، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَبَعَثَ فِيهِ رُوحَهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، فأضاف الوجه إلى الذات، وأضاف النعت إلى الوجه فقال: ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

وقال الله عز وجل: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]؛ بتشديد الياء من الإضافة وذلك تحقيق في الشنية؛ وفي ذلك منع من حملها على النعمة والقدرة؛ لأنه ليس لتخصيص الشنية في نعم الله ولا في قدرته معنى يصح؛ لأن نعم الله أكثر من أن تحصى؛ ولأنه خرج مخرج التخصيص؛ وتفضيل آدم عليه السلام على إبليس وحملها على القدرة أو على النعمة يزيل معنى التفضيل لاشتراكها فيها؛ ولا يجوز حملها على الماء والطين؛ لأنه لو أراد ذلك لقال: لما خلقت من يدي، كما يقال: صنعت هذا الكوز من الفضة أو من النحاس؛ فلما قال: ﴿بِيدَيَّ﴾ علمنا أن المراد بهما غير ذلك.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا صَنَعَ عَلَىٰ عَيْنَيَّ﴾ [طه: ٣٩]، وقال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، عن عمرو بن دينار سمع جابر بن عبد الله يقول: لما نزل على النبي ﷺ: ﴿هُوَ أَقْدَرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥].

قال: أعوذ بوجهك.

﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥].

قال: أعوذ بوجهك.

﴿أَوْ يَلْسَنُكُمْ لِسَانًا وَيُدْخِلُكُمْ فِي جُحِيمٍ بَعْضُهُمْ فِيهِمْ كَيْفَ تُصْرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

قال: هاتان أهون وأيسر.

عن أنس أن النبي ﷺ قال: «يُجْمَعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيهِتْمُونَ لذلك فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا؛ فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم أنت أبو الناس،

خلقك الله بيده، وأسجد لك الملائكة، وعلمك أسماء كل شيء؛ اشفع لنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا».

عن أنس عن النبي ﷺ قال: «ما بعث نبي إلا قد أندر أمتة الدجال، ألا وإنه أعور وإن ربكم ليس بأعور».

قال الأستاذ الإمام رحمه الله: وفي هذا نفي نقص العور عن الله سبحانه وإثبات العين له صفة؛ وعرفنا بقوله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وبدلائل العقل أنها ليست بحدقة، وأن اليدين ليستا بجارحتين، وأن الوجه ليس بصورة؛ فإنها صفات ذات أثبتناها بالكتاب والسنة بلا تشبيه. وبالله التوفيق^(١).

وقد ردَّ على هذا عبد القاهر البغدادي في أصول الدين فقال: (والصحيح عندنا أن وجهه ذاته وعينه رؤيته للأشياء، وقوله: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ معناه: ويبقى ربك، ولذلك قال: ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ بالرفع؛ لأنه نعت الوجه، ولو أراد الإضافة لقال: ذي الجلال والإكرام بالخفض.

وقوله: ﴿وَلِئُضَنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه: ٣٩) أي على رؤية مني؛ كما قال: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (طه: ٤٦).

والمراد بقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] بطلان كل عمل لم يقصد به وجه الله تعالى^(٢).

لكننا نرى الجويني ينص على مذهب تفويض المعنى ويؤكد على ذلك بقوله في العقيدة النظامية: (وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها، وتفويض معانيها إلى الرب تعالى، والذي نرتضيه رأياً وندين الله به عقلاً اتباع سلف الأمة، فالأولى اتباع وترك الابتداع، والدليل السمعي القاطع في ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة وهو مستند معظم الشريعة).

(١) (٥٣).

(٢) (١٢٩).

وقد درج صاحب رسول الله ﷺ ورضي عنهم ترك التعرض لمعانيتها ودرك ما فيها، وهم صفوة الإسلام والمستقلون بأعباء الشريعة، وكانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الملة والتواصي بحفظها، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها، فلو كان تأويل هذه الآي والظواهر مسوغاً ومحتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة. وإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك قاطعاً بأنه الوجه المتبع، فحق على ذي دين أن يعتقد تنزه الباري عن صفات المحدثين، ولا يخوض في تأويل المشكلات، ويكفل معناها إلى الرب تبارك وتعالى^(١).

قال الإمام البيهقي في الاعتقاد والهداية: (باب ذكر آيات وأخبار وردت في إثبات صفة الوجه واليدن والعين: وهذه صفات طريق إثباتها السمع؛ فثبتها لورود خبر الصادق بها ولا نُكْفِيهَا.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهٌ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

وقال الله عز وجل: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِإِدَّتِي﴾ [ص: ٧٥]؛ بتشديد الياء من الإضافة وذلك تحقيق في الثنية.

وفي ذلك منع من حملها على النعمة والقدرة؛ لأنه ليس لتخصيص الثنية في نعم الله ولا في قدرته معنى يصح؛ لأن نعم الله أكثر من أن تحصى؛ ولأنه خرج مخرج التخصيص؛ وتفضيل آدم عليه السلام على إبليس وحملها على القدرة أو على النعمة يزيل معنى التفضيل لاشتراكهما فيها.

ولا يجوز حملها على الماء والطين؛ لأنه لو أراد ذلك لقال: لما خلقت من يدي، كما يقال: صنعت هذا الكوز من الفضة أو من النحاس؛ فلما قال: ﴿بِإِدَّتِي﴾ علمنا أن المراد بهما غير ذلك.

وقال الله عز وجل: ﴿وَلَنُصَنِّعَ عَلَى عَيْنَيَّ﴾ [طه: ٣٩].

وقال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

عن قتادة عن أنس عن النبي ﷺ قال: «ما بعثني نبي إلا قد أئذر الدجال ألا وإنه أعور وإن ربكم ليس بأعور».

قال الأستاذ الإمام رحمه الله: وفي هذا نفى العور عن الله سبحانه، وإثبات العين له صفة؛ وعرفنا بقوله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وبدلالة العقل: أنها ليست بحدقة، وأن اليدين ليستا بجارحتين، وأن الوجه ليس بصورة؛ فإنها صفات ذات أثبتها بالكتاب والسنة بلا تشبيه؛ وبالله التوفيق^(١).

إن قول أبي الحسن الأشعري الذي نص عليه في الإبانة في غاية الوضوح بأن المذهب المعبر والهدي الحق إثبات هذه الصفات على ما جاء في الكتاب والسنة فقال رحمه الله: (الكلام في الوجه العينين والبصر واليدين: قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، فأخبر أن له سبحانه وجهاً لا يفنى ولا يلحقه الهلاك.

وقال تعالى: ﴿تَجَرَّى بِاعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الْفُؤَادُ لِقَابِ رَبِّكَ وَأَعْيُنَنَا وَوَحْيَنَا﴾ [هود: ٣٧]، فأخبر تعالى أن له وجهاً وعيناً ولا تكيف ولا تحدد.

وقال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ لِقَابِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَلِنُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]^(٢).

ثم رأيت تفصيل كلامهم في صفتي الوجه واليد كل على حده دون تكرار أقوال من سبق كلامهم من أهل العلم، وبيان ذلك على النحو التالي.

(١) (٥٣).

(٢) (٨٨).

قولهم في صفة الوجه لله تعالى

قال أبو الحسن الأشعري في الإبانة: (مسألة: فمن سألنا فقال: أتقولون أن الله سبحانه وجهاً؟

قيل له: نقول ذلك خلافاً لما قاله المبتدعون، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] (١).

قال ابن فورك في مختلف الحديث: (والوجه الثاني: أن يراد بذكر الوجه المضاف إلى الله عز وجل صفته على حسب ما يقول، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

وكقوله ﷺ: «أناي جبريل فقال: يا محمد: إن ربك سألني ما جزاء من أذهب كريمته في الدنيا؟ فقلت: لا علم لي إلا ما علمتني.

قال: جزاؤه الخلد في داري والنظر إلى وجهي». وكقوله: وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه. ومثله ما روي في تأويل قول الله عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

عن أبي بكر أنه قال: الزيادة: النظر إلى وجه ربهم. وكذلك روي عن أبي موسى الأشعري وعن حذيفة رضي الله عنه. ومثله ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يقول في دبر كل صلاة: بسطت يدك فأعطيت ولك الحمد ربنا، وجهك أكرم الوجوه (٢).

(١) (٨٩).

(٢) (١٦٧).

وقال القرطبي في الجامع: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]: وقال بعض الأئمة: تلك صفة ثابتة بالسمع، زائدة على ما توجهه العقول من صفات القديم تعالى^(١).

ثم أبطل هذا المعنى الثابت بالنص الدال على إثبات الصفة لله تعالى وأنها قديمة في نفس الموضع فقال: (قال ابن عطية: وضعف أبو المعالي هذا القول، وهو كذلك ضعيف). وقال القرطبي في موضع آخر من الجامع: (قال القشيري: قال قوم: هو صفة زائدة على الذات لا تُكَيَّف، يحصل بها الإقبال على من أراد الرب تخصيصه بالإكرام)^(٢). ثم رد على ما قاله أهل الإثبات الذين حكى مذهبهم القشيري فقال: (والصحيح أن يقال: وجهه وجوده وذاته).

من قال إن الوجه بمعنى الذات ومن نفى ذلك

لقد تنوع مذهب علماء الأشاعرة في تبين معنى الوجه في سياق بعض النصوص القرآنية والنبوية؛ ومن ذلك ما قاله ابن فورك في مشكل الحديث: (والوجه الثاني أن لا يراد بذكر الوجه المضاف إلى الله عز وجل صفته على حسب ما يقول، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

فقال: يا محمد إن ربك سألني ما جزاء من أذهبت كريمته في الدنيا؟ فقلت: لا أعلم لي إلا ما علمتني، قال جزاؤه الخلد في داري، والنظر إلى وجهي^(٣). وقد رد على هذا المعنى الجويني في الإرشاد فقال: (وأما قوله تعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، فلا وجه لحمل الوجه على صفة؛ إذ لا تختص بالبقاء بعد فناء الخلق صفة لله تعالى؛ بل هو الباقي بصفاته الواجبة، فالأظهر حل الوجه

(١) (٨٤/٢).

(٢) (١٦٥/١٧).

(٣) (١٦٧).

على الوجود.

وقيل: المراد بالوجه الجهة التي يراد بها التقرب إلى الله تعالى^(١).

وقد قال بعضهم: أن الوجه هو بمعنى الذات؛ كما قال الرزاي في هذا المعنى في كتابه أصول الدين: (والصحيح عندنا أن وجهه ذاته، وعينه رؤيته للأشياء، وقوله: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ معناه ويبقى ربك)^(٢).

وقال أبو بكر الباقلاني في الإنصاف: (ويجب أن يُعلم أن الله سبحانه باقٍ؛ ومعنى ذلك أنه دائم الوجود، والدليل عليه قوله: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ يعني ذات ربك.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ يعني ذاته)^(٣).

وقال القرطبي في الجامع: (وقد قال حذاق المتكلمين في قوله تعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ إنها عبارة عن الذات)^(٤).

قلت: لكن ابن فورك قد رد على هذا بنص صريح يبيّن؛ فقال في مشكل الحديث: (فأما الوجه بمعنى الذات فلا يوجد في اللغة أصلاً)^(٥).

(١) (١٤٧).

(٢) (١٢٩).

(٣) (٣٦).

(٤) (٤٥ / ٤).

(٥) (١٦٨).

قولهم في صفة اليد

قال أبو الحسن الأشعري في أصول أهل السنة والجماعة: (أجمعوا على أنه عز وجل يسمع ويرى، وأن له يدان مبسوطتان، وأن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه، من غير أن يكون جوازا، وأن يديه تعالى غير نعمته، وقد دل على ذلك تشريفه لآدم عليه السلام حيث خَلَقَهُ بيده، وتقريعه لإبليس على الاستكبار عن السجود مع ما شَرَّفَهُ به بقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] ^(١).

وفصل قوله في الإبانة: (مسألة: قد سئنا أتقولون لله يدين؟

نقول ذلك بلا كيف؛ وقد دل عليه قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]،

وقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

وروي عن النبي ﷺ: «أن الله خلق آدم بيده، وخلق جنة عدن بيده، وكتب التوراة

بيده، وغرس شجرة طوبى بيده».

وقال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤].

وجاء عن النبي ﷺ أنه قال: «كلتا يديه يمين».

وقال تعالى: ﴿لَا تَخْذَفَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٥] ^(٢).

قال الجويني في الإرشاد: (ومن أثبت هذه الصفات السمعية وصار إلى أنها زائدة على

ما دلت عليه دلالات العقول، استدل بقوله تعالى في توبيخ إبليس إذ امتنع عن السجود:

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِدَيَّ أَتَسْتَكْبِرُ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥].

قالوا: لا وجه لحمل اليدين على القدرة؛ إذ جملة المبدعات مخترعة لله تعالى بالقدرة؛

ففي الحمل على ذلك إبطال فائدة التخصيص ^(٣).

(١) (٧٢).

(٢) (٨٩-٩٠).

(٣) (١٤٦).

وقد رد الجويني على هذا المذهب في نفس الموطن فقال: (وهذا غير سديد؛ فإن العقول قضت بأن الخلق لا يقع بالقدرة أو بكون القادر قادراً، فلا وجه لاعتقاد وقوع خلق آدم عليه السلام بغير القدرة).

ومما يوضح ما قلناه أن آدم صلوات الله وسلامه عليه ما استحق أن يسجد له لما خصص به من الخلق باليدين، وذلك متفق عليه مقضي به في موجب الفعل، وإنما لزم السجود اتباعاً لأمر الله؛ فإذا وجب على كل محقق القطع بأن آدم عليه السلام لم يسجد له لأنه خلق باليدين، وظاهر الآية يقتضي اقتضاء السجود لاختصاص آدم بما تضمنته الآية، فالظاهر متروك إذاً، والعقل حاكم بأن الذي يقع الخلق به القدرة).

قلت: وقد رد ابن فورك على من قال هذا القول، بل جعل في رد تخصيص خلق الله لآدم عليه السلام بيده رد على تفضيل الله له عن سائر خلقه وبيان رب البرية هذا التفضيل بقوله: ﴿قَالَ يَإِذَايْلُسُ مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ أَتَسْتَكْبِرُ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ (ص: ٧٥).

قال ابن فورك في مشكل الحديث: (فإن قال قائل: فإذا حملتم اليد ههنا على معنى الذات، فهلا حملتموها أيضاً في قوله تعالى: ﴿خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ على الذات؟ قيل: لا يصح ذلك، والفرق بينهما أن الله عز ذكره إنما قال لإبليس: ﴿مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ أَتَسْتَكْبِرُ﴾ محتجاً عليه، مفضلاً عليه بهذا التخصيص، مبطلاً لقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾.

ولو حمل على معنى الذات سقطت هذه الفائدة وبطل موضع الاحتجاج من الله تعالى على إبليس^(١).

لكن كان للجويني ومن ذهب مذهبه وجهة أخرى غير وجهة المثبتين؛ فردّ على من أثبت صفة الوجه واليدين والعين من أصحابه وأبناء مذهبه وجلدته؛ فقال في الإرشاد: (ومن سلك من أصحابنا سبيل إثبات هذه الصفات بظواهر هذه الآيات، ألزمه سوق

كلامه أن يجعل الاستواء والمجيء والنزول والجنب من الصفات تمسكاً بالظاهر؛ فإن ساع تأويلها فيما يتفق عليه، لم يبعد أيضاً طريق التأويل فيما ذكرناه^(١).

بل زاد عبد القاهر البغدادي غمراً بكل من أثبت ذلك على باب الصفة ولو احترز بألفاظ نفى المشابهة في النص؛ فقال في أصول الدين: (وزعم بعض أصحابنا أن يديه صفتان.

وزعم القلانسي أنها صفة واحدة.

وزعم الجبائي أن يديه نعمتان منه.

وهذا يبطل فائدة تخصيص آدم بهما؛ لأنه لا يجوز من الله تخصيص بعض العباد بلطف ونعمة مخصوصة في دار التكليف.

وقد أبطلنا قول المشبهة بالجراحة قبل هذا^(٢).

إذ في كلام البغدادي ثلاثة أقوال متباينة من حيث اللفظ الظاهر ودلالة المعنى:

المذهب الأول: أنها صفتان على الحقيقة كما أخبر الله تعالى في كتابه وأخبر نبيه ﷺ.

المذهب الثاني: اعتبار النص لفظ دل على صفة واحدة غير المعنى الظاهر في النص.

المذهب الثالث: أن معنى اليدين: نعمتان.

ثم رد على المذهب الأخير بما قاله من إسقاط فضل آدم وما خصه الله تبارك وتعالى به من خلقه بيديه.

وقد رد الإمام أبو الحسن الأشعري على من قال: إن يديه بمعنى نعمته؛ فقال في

الإبانة: (وليس يجوز في لسان العرب ولا في عادة الخطاب أن يقول القائل: عملت كذا بيدي، ويعني به النعمة.

وإذا كان الله عز وجل إنما خاطب العرب بلغتها وما يجري مفهوماً في كلامها،

ومعقولاً في خطابها، وكان لا يجوز في خطاب أهل اللسان أن يقول القائل: فعلت بيدي

ويعني النعمة؛ بطل أن يكون معنى قوله: ﴿بِيَدَيَّ﴾ النعمة.

(١) (١٤٨).

(٢) (١٣١).

وذلك أنه لا يجوز أن يقول القائل: لي عليه يَدَيَّ، بمعنى لي عليه نعمتي، ومن دافعنا عن استعمال اللغة ولم يرجع إلى أهل اللسان فيها دافع عن أن تكون اليد بمعنى النعمة؛ إذ كان لا يمكنه أن يتعلق في أن اليد النعمة إلا من جهة اللغة، فإذا دفع اللغة لزمه أن لا يفسر القرآن من جهتها، وأن لا يثبت اليد النعمة من قبلها، لأنه إن روجع إلى اللغة فليس في اللغة أن يقول القائل: بيدي يعني نعمتي.

وإن لجأ إلى وجه ثالث سألناه عنه؛ ولن يجد له سبيلاً.

مسألة: ويقال لأهل البدع: ولم زعمتم أن معنى قوله ﴿يَدَيَّ﴾^ط نعمتي، أزعمتم ذلك إجماعاً أو لغة؟

فلا يجدون ذلك إجماعاً ولا في اللغة^(١).

ونختم بما قال أبو الحسن الأشعري في رسالته إلى أهل الثغر المسماة كذلك بأصول أهل السنة والجماعة، قال رحمه الله: (أجمعوا على أنه عز وجل يسمع ويرى. وأن له تعالى يدان مبسوطتان.

وأن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه، من غير أن يكون جوازاً.

وأن يديه تعالى غير نعمته.

وقد دل على ذلك تشريفه لآدم عليه السلام حيث خلقه بيده، وتقريعه لإبليس على الاستكبار عن السجود مع ما شرفه به بقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ يَدَيَّ﴾ [ص: ٤٧٥]^(٢).

(١) (٩٠).

(٢) (٧٢).

قولهم في صفة الكلام

إنَّ للأشاعرة كلاماً طويلاً وتفصيلاً بلا دليل في صفة الكلام، أذكر منها مذهبين:
المذهب الأول: قولهم في صفة كلام الله تعالى.
المذهب الثاني: قولهم في خلق القرآن.

قولهم في صفة الكلام وطرق استدلالهم عليه، وفيه مسائل:**المسألة الأولى:****التدليل على صفة الكلام**

قال الشهرستاني: (فطريق الأشعرية أن قالوا: دلَّ العقل على كون الباري تعالى حياً، والحي يصح منه أن يتكلم ويأمر وينهى، كما يصح منه أن يعلم ويقدر ويريد ويسمع ويبصر، فلو لم يتصف بالكلام أدى إلى أن يكون متصفاً بضده وهو الخرس والعَي والحُضْر وهي نقائص يتعالى عنها)^(١).

وقال أيضاً: (وقد سلك أبو إسحاق الإسفراييني رحمه الله تعالى منهجاً آخر، فقال: دلت الأفعال بإتقانها وإحكامها على أنه تعالى عالم، ويستحيل أن يعلم شيئاً ولا يخبر عنه، فإن الخبر والعلم يتلازمان، فلا يتصور وجود أحدهما دون الثاني، ومن لا خبر عنده عن معلوم لا يمكنه أن يخبر غيره عنه، ومن المعلوم أن الباري يصح منه التكليف والتعريف والإنخبار والتنبية والإرشاد والتعليم، فوجب أن يكون له كلام وقول يكلف ويعرف ويخبر وينبه بذلك، فإذا ثبتت هذه الدلائل كونه متكلماً)^(٢).

(١) (٢٥٦).

(٢) (٢٥٦-٢٥٧).

قال الجويني: (فكل جائر من صفات الخلق يستدل على صفة واجبة للخالق)^(١). فرد عليه الغزالي في الاقتصاد: (ندعي أن صانع العالم متكلم كما أجمع عليه المسلمون، واعلم أن من أراد إثبات الكلام بأن العقل يقضي بجواز كون الخلق مرددين تحت الأمر والنهي، وكل صفة جائزة في المخلوقات تستند إلى صفة واجبة في الخالق، فهو في شطط، إذ يقال له: إن أردت جواز كونهم مأمورين من جهة الخلق الذين يتصور منهم الكلام، فمُسَلَّم، وإن أردت جوازه على العموم من الخلق والخالق فقد أخذت محل النزاع مُسَلَّمًا في نفس الدليل وهو غير مُسَلَّم، ومن أراد إثبات الكلام بالإجماع أو بقول الرسول فقد سام نفسه خطة خَسَفَ؛ لأن الإجماع يستند إلى قول الرسول عليه السلام، ومن أنكر كون الباري متكلمًا فبالضرورة ينكر تصور الرسول، إذ معنى الرسول: المبلغ لرسالة المرسل، فإن لم يكن للكلام متصور في حق من ادعى أنه مرسل كيف يتصور الرسول؟ ومن قال أنا رسول الأرض أو رسول الجبل إليكم فلا يصغى إليه لاعتقادنا استحالة الكلام والرسالة من الجبل والأرض، والله المثل الأعلى، ولكن من يعتقد استحالة الكلام في حق الله تعالى استحال منه أن يصدق الرسول؛ إذ المكذب بالكلام لا بد أن يكذب بتبليغ الكلام، والرسالة عبارة عن تبليغ الكلام، والرسول عبارة عن المبلغ، فلعل الأقوم منهج ثالث وهو الذي سلكتناه في إثبات السمع والبصر في أن الكلام للحي إما أن يقال هو كمال أو يقال هو نقص، أو يقال لا هو نقص ولا هو كمال، وباطل أن يقال هو نقص أو هو لا نقص ولا كمال فثبت بالضرورة أنه كمال، وكل كمال وجد للمخلوق فهو واجب الوجود للخالق بطريق الأولى كما سبق)^(٢).

وقال سعد الدين التفتازاني في شرح العقائد النسفية: (والدليل على ثبوت صفة الكلام: إجماع الأمة وتواتر النقل عن الأنبياء عليهم السلام أنه تعالى متكلم، مع قطع باستحالة التكلم من غير ثبوت صفة الكلام)^(٣).

(١) العقيدة النظامية.

(٢) (١٨١).

(٣) (٦٠).

وقال الغزالي في الاقتصاد: (ومن أراد إثبات الكلام بالإجماع أو بقول الرسول فقد سام نفسه خطة خسف)^(١).

وقد سبق قبل قليل نقل كلامه وترجيح الطريقة المثل في مذهبه في صفة الكلام. وقال في شرح السنوسية: (ملاحظة: اعلم أن الدليل الثقل في السمع والبصر والكلام أقوى من العقلي)^(٢).

المسألة الثانية:

حقيقة الكلام

قال الجويني في الإرشاد: (وقال شيخنا رحمه الله: الكلام ما أوجب لمحلّه كونه متكلماً. وهذا فيه نظر عندنا:

والأولى أن نقول: الكلام هو القول القائم بالنفس، وإن رُمنا تفصيلاً، فهو القول القائم بالنفس الذي تدل عليه العبارات وما يصطلح عليه من الإشارات)^(٣).

وقال الرازي في المطالب العالية: (كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته)^(٤).

وقال الغزالي في الاقتصاد: (فإن جاز أن تكون صفة واحدة تكون هي الأمر وهي النهي وهي الخبر وتنوب عن هذه المختلفات جاز أن تكون صفة واحدة تنوب عن العلم والقدرة والحياة وسائر الصفات. ثم إذا جاز ذلك جاز أن تكون الذات بنفسها كافية ويكون فيها معنى القدرة والعلم وسائر الصفات من غير زيادة، وعند ذلك يلزم مذهب المعتزلة والفلاسفة؟

والجواب أن نقول: هذا السؤال يحرك قطباً عظيماً من إشكالات الصفات، ولا يليق

(١) (١٨١).

(٢) (٩٦).

(٣) (١٠٨).

(٤) (٣٠١-٣٠٧).

حلها بالمختصرات. ولكن إذا سبق القلم إلى إيراد فلنرمز إلى مبدأ الطريق في حله. وقد كَفَّ عنه أكثر المحصلين وعدلوا إلى التمسك بالكتاب والإجماع، وقالوا: هذه الصفات قد ورد الشرع بها، إذ دل الشرع على العلم وفهم منه الواحد لا محالة والزائد على الواحد لم يرد فلا يعتقده. وهذا لا يكاد يشفي فإنه قد ورد بالأمر والنهي والخبر والتوراة والإنجيل والقرآن، فما المانع من أن يقال: الأمر غير النهي، والقرآن غير التوراة، وقد ورد بأنه تعالى يعلم السر والعانية، والظاهر والباطن، والرطب واليابس، وهلم جرا إلى ما يشتمل القرآن عليه... والرأي الثالث هو القصد والوسط؛ وهو أن يقال: المختلفات لاختلافها درجات في التقارب والتباعد؛ فرب شيئين مختلفين بذاتيهما كاختلاف الحركة والسكون واختلاف القدرة والعلم الجوهر والعرض، ورب شيئين يدخلان تحت حد وحقيقة واحدة ولا يختلفان لذاتيهما وإنما يكون الاختلاف فيهما من جهة تغاير التعلق؛ فليس الاختلاف بين القدرة والعلم كالاختلاف بين العلم بسواد والعلم بسواد آخر أو بياض آخر، ولذلك إذ حددت العلم تجد دخل فيه العلم بالمعلومات كلها، فنقول: الاقتصاد في الاعتقاد أن يقال: كل اختلاف يرجع إلى تباين الذوات بأنفسها فلا يمكن أن يكفي الواحد منها، وينوب عن المختلفات، فوجب أن يكون العلم غير القدرة وكذلك الحياة وكذا الصفات السبعة، وأن تكون الصفات غير الذات من حيث أن المباينة بين الذات الموصوفة وبين الصفة أشد من المباينة بين الصفتين^(١).

وقال البغدادى في أصول الدين: (كلام الله تعالى عندنا أمر ونهي، وخبر ووعد ووعد... وقراءة كلامه بالعربية قرآن، وقراءته بالعبرانية توراة أو زبور، وبالسريانية إنجيل)^(٢). ثم بيّن أن الناس في مذهبهم على قولين في مسألة اعتبار كلام الله تعالى أمر ونهي... النخ؛ فقال: (ومن أجاز من أصحابنا خطاب المعلوم على شرط الوجود والعقل والبلوغ قال: إن كلام الله لم يزل أمراً ونهياً للمكلفين الذين خلقوا بعد ذلك بشرط أن يفعلوا ما أمروا به بعد الوجود والبلوغ ووفور العقل.

(١) (١٩٨-١٩٩).

(٢) (١٢٧).

ومن لم يميز منهم خطاب المعدوم ولم يسم كلامه قبل وجود الخلق أمراً ونهياً قال إنما سمي كلامه أمراً ونهياً عند توجه اللزوم للمكلف).
وقد قال البيجوري قولاً يمكن اعتباره رابعاً في هذه المسألة ينقض قول من اعتبر الأمر والنهي وهما وسائل الخطاب التي فيها إعراب وإفصاح من غير اشتباه في لفظ الخطاب أن يكون كلاماً؛ فقال في تحفة المريد: (صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، ليست بحرف ولا صوت، منزّهة عن التقدم والتأخر والإعراب والبناء، ومنزهة عن السكوت النفسي بأن لا يدبر في نفسه الكلام مع القدرة عليه، ومنزهة عن الآفة الباطنية بأن لا يقدر على ذلك كما في حال الخرس والطفولية)^(١).

المسألة الثالثة:

كلام الله المسموع هل هو عبارة عن كلام الله تبارك وتعالى أم لا؟

قال ابن فورك في تأويل مختلف الحديث: (وأما التكليم؛ فمن أصحابنا من قال: هو صفة الكلام، يوصف بها الكلام إذا أفهم المخاطبين كلامه بما يحدثه من العبارات والكنائيات، وليس لتكلم الله كيفية)^(٢).

وقال ابن فورك في مختلف الحديث: (واعلم أن ذلك مما يدل على ما قلنا من حدوث العبارات؛ فتارة يسمعها من الملك فيسمع كلام الله عنده، وتارة يتجدد له فهم بابتداء بما يريد الله تعالى من معاني مخاطباته بالأمر والنهي، وكل ما يرجع إلى العبارات والكنائيات فحكمه الحدوث).

وأما المكتوب المعبر فهو كلام الله جل ذكره؛ وليس نزول الوحي على معنى انتقال شيء من مكان إلى مكان، ولكنه يحدث فيه ويسمع الرسول بما سمعه ويفهمه من كلام الله تعالى عند حدوث عباراته من أصوات وغيرها.

(١) (١٢٩-١٣٠).

(٢) (١٧٨-١٧٩).

وتارة عند حدوث فهم وعلم ابتداء؛ وقد يسمى كلام الله وَحْيًا كما يُسمى العبارة عنه وَحْيًا؛ وهذا يسمى الكلام وتلاوته قرآنًا، وأحدهما متلو والآخر تلاوة^(١).

وقد عرض الجويني في الإرشاد قولين لمعنى اعتبار كلام الله تعالى فقال: (وذهب أهل الحق أن الكلام بالنفس وهو الفكر الذي يدور في الخلد وتدل عليه العبارات تارة وما يصطلح عليه من الإشارات ونحوها أخرى).

أما القول الثاني فهو الذي اعتبر كلام الله المسموع كلامًا، ولكنه من حيث التدليل اعتبره على باب التجوز، فقال في الإرشاد: (ومن أصحابنا من قال: الكلام الحقيقي هو القائم بالنفس، والعبارات تسمى كلامًا تجوزًا كما تسمى علومًا تجوزًا)^(٢).

وقال في الإرشاد: (فأما المقروء فهو المفهوم منها المعلوم، وهو الكلام القديم الذي تدل عليه العبارات وليس منها)^(٣).

وهو بكل اعتبار قد أضاف وجهًا مغايرًا لما ذكر، ورجح أنه كلام أهل الحق والإنصاف عنده، ولا بد من دخول المنازعة في هذا المعنى الزائد أو السكوت عنه على باب التنزل أو التسليم له.

وخالفهم الباقلاني في ظاهر الأمر إذ قال في الإنصاف: (وأن يعلم أن كلامه مسموع بالأذان وإن كان مخالفاً لسائر اللغات وجميع الأصوات، وأنه ليس من جنس المسموعات، كما أنه مَرئيٌّ بالأبصار، وإن كان مخالفاً لأجناس المراثيات، وكما أنه موجود مخالف لسائر الحوادث الموجودات، وأنَّ سامع كلامه منه تعالى بغير واسطة ولا ترجمان كجبريل وموسى ومحمد عليهم السلام حق؛ سمعه من ذاته غير متلو ولا مقروء؛ ومن عداهم ممن يتولى الله خطابه بنفسه إنما يسمع كلامه متلوًا ومقروءًا).

وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال: ﴿مَنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وأن قراءتنا القرآن كسب لنا نثاب عليها، ونلام على

(١) (١٧٨ - ١٧٩).

(٢) (١١١).

(٣) (١٢٧).

تركها إذ وجبت علينا في الصلوات؛ وأنه لا يجوز أن يحكى كلام الله عز وجل ولا أن يلفظ به؛ لأن حكاية الشيء مثله وما يقاربه؛ وكلام الله تعالى لا مثل له من كلام البشر^(١). وقال في الرسالة الحرة: (اعلم أن الله تعالى متكلم، له كلام عند أهل السنة والجماعة، وأن كلامه قديم؛ ليس بمخلوق ولا مجعول ولا محدث؛ بل كلامه قديم؛ صفة من صفات ذاته كعلمه وقدرته وإرادته ونحو ذلك من صفات الذات، ولا يجوز أن يقال: كلام الله عبارة ولا حكاية)^(٢).

وقال الإسفراييني في التبصير في الدين: (وما يدل على إثبات كونه متكلماً قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] والإذن من صفات الكلام. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٠]، وقوله: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]، وشكره للعباد مدحه إياهم على طاعته وذلك من صفات الكلام)^(٣).

وكان من وضوح إثبات صفة الكلام ما قاله البيهقي في الاعتقاد والهداية: (وقال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]. وقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. فهو متكلم، وله كلام يباين به صفة الأخرس والساكت)^(٤).

قال الباقلاني في الإنصاف: (وأن يعلم أن كلامه مسموع بالأذان وإن كان مخالفاً لسائر اللغات وجميع الأصوات، وأنه ليس من جنس المسموعات، كما أنه مرئي بالأبصار، وإن كان مخالفاً لأجناس المرئيات، وكما أنه موجود مخالف لسائر الحوادث الموجودات، وأن سامع كلامه منه تعالى بغير واسطة ولا ترجمان كجبريل وموسى ومحمد عليهم السلام

(١) (٢٦).

(٢) عن كتاب موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/ ٥٤٠).

(٣) (١٣٩).

(٤) (٤٩).

حق، سمعه من ذاته من غير متلو ولا مقروء، ومن عداهم ممن يتولى الله خطابه بنفسه إنما سمع كلامه متلوًا ومقروءًا. وكذلك قال الله عز وجل: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٤)، وقال: ﴿مِنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

... وأنه لا يجوز أن يحكى كلام الله عز وجل ولا أن يلفظ به لأن حكاية الشيء مثله وما يقاربه، وكلام الله تعالى لا مثل له من كلام البشر ولا يجوز أن يلفظ به بتكلم الخلق لأن ذلك يوجب كون كلام الله قائمًا بذاتين؛ قديم ومحدث، وذلك خلاف الإجماع والمعقول^(١).

قال الجويني في الإرشاد: (كلام الله تعالى مسموع في إطلاق المسلمين، والشاهد لذلك من كتاب الله تعالى قوله تعالى: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ) [التوبة: ٦].

ثم السماع لفظة محتملة، لا يتحدد معناها، ولا ينفرد مقتضاها؛ فقد يراد بها الإدراك؛ وقد يراد بها الفهم والإحاطة؛ وقد يراد بها الطاعة والانقياد؛ وقد يراد بها الإجابة^(٢). وقال في شرح السنوسية: (ملاحظة: اعلم أن كلام الله تعالى للنبي موسى عليه السلام أنه أزال منه المانع حتى سمع كلامه القديم الذي ليس بحرف ولا صوت على مذهب الإمام الأشعري وأكثر أهل السنة، ثم رد عليه المانع فلم يسمع، وليس أن الله تعالى ابتداءً كلامه لموسى، ولا انعدم كلامه بعد رد المانع عليه؛ لأن كلامه تعالى قديم، والقديم لا يتغير ولا يتبدل)^(٣).

(١) (٣٩).

(٢) (١٣٣).

(٣) (٥٧).

المسألة الرابعة:

إنزال كلام الله تعالى والقول بالعبارة

قال الجويني في الإرشاد: (ثم ليس المعنى بالإنزال حطُّ شيء من علو إلى سفلى، فإن الإنزال بمعنى الانتقال، يتخصص بالأجسام والأجرام؛ فالمعنى بالإنزال أن جبريل صلوات الله عليه أدرك كلام الله تعالى وهو في مقامه فوق سبع سماوات، ثم نزل إلى الأرض، فأفهم الرسول ﷺ ما فهمه عند سدره المنتهى من غير نقل لذات الكلام)^(١). وقال في شرح السنوسية: (ولا يجوز أن يقال إنَّ جبريل عليه السلام هو الذي رَكَّبَ هذه الحروف في نفسه ثم أنزلها على سيدنا محمد عليه السلام، بل الله تعالى علَّم جبريل هذه الألفاظ وأمره بإنزالها على سيدنا محمد عليه السلام)^(٢).

وقال البيجوري في حاشيته: (والراجع أن المتَّزَّل اللفظ والمعنى، وقيل: المعنى وعَبَّرَ عنه جبريل بألفاظ من عنده، وقيل: المتَّزَّل المعنى وعَبَّرَ عنه النبي ﷺ بألفاظ من عنده، لكن التحقيق الأول؛ لأن الله خلقه أولاً في اللوح المحفوظ، ثم أنزله في صحائف إلى السماء الدنيا في محل يقال له بيت العزة في ليلة القدر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، ثم أنزله على النبي ﷺ مفزقاً بحسب الوقائع)^(٣).

(١) (١٣٥).

(٢) (٥٥).

(٣) (١٦٢).

الأشاعرة وخلق القرآن

قال الإيجي في المواقف: (إذا عرفت هذا الذي قررناه لك فاعلم أن ما تقولُه المعتزلة في كلام الله تعالى وهو خلق الأصوات والحروف الدالة على المعاني المقصودة وكونها حادثة قائمة بغير ذاته تعالى فنحن نقول به، ولا نزاع بيننا وبينهم في ذلك كما مرَّ آنفاً.

وما نقوله نحن وثبتته من كلام النفس المغاير لسائر الصفات فهم ينكرون ثبوته. ولو سلّموه لم ينفوا قِدَمَه الذي ندعيه في كلامه تعالى، فصار محل النزاع بيننا وبينهم نفي المعنى النفسي وإثباته، فإذا الأدلة الدالة على حدوث الألفاظ إنما تقيدهم بالنسبة إلى الحنابلة القائلين بقدَمِ الألفاظ، وأما بالنسبة إلينا فيكون نصباً للدليل في غير محل النزاع^(١).

قال الشيخ إبراهيم البيجوري في تحفة المريد: (واعلم أن كلام الله يطلق على الكلام النفسي القديم؛ بمعنى أنه صفة قائمة بذاته تعالى؛ وعلى الكلام اللفظي؛ وبمعنى أنه خلقه).

وقال: (وقد أضيف له تعالى كلام لفظي كالقرآن؛ فإنه كلام الله قطعاً؛ بمعنى أنه خلقه في اللوح المحفوظ)^(٢).

وقد اعتمد هذا القول عامة متأخري الأشاعرة، بل ويَعْلَمُوه في الجامعات والكليات، وفي المجالس الخاصة، وأحياناً العامة، فقال البيجوري: (لكن يمتنع أن يقال: القرآن مخلوق إلا في مقام التعليم)^(٣).

وقد رد هذا القول عدد من علماء الأشاعرة ولم يقبلوه، ونصوا على بطلانه وفساده؛ قال ابن فورك في تأويل مختلف الحديث: (واعلم أنه قد نقص بهذه الترجمة ما هو أصل من أصول السنة في أن كلام الله غير مخلوق ولا محدث وأنه لم يزل كلاماً).

(١) (٣/ ١٣٥).

(٢) (٨٤).

(٣) (١٦٢).

وقال: (واعلم أنه لا يصح على أصلنا في قولنا أن كلام الله غير مخلوق ولا حادث بوجه من الوجوه أن الله يتكلم كلاماً بعد كلام)^(١).

وقال الرازي في أصول الدين: (وإذا استحال وقوع فوائد أوصاف كلام الله تعالى إلى غيره صح قيام كلامه به ووجب أنه صفة أزلية غير مخلوقة ولا حادثة)^(٢). قال الباقلاني في الرسالة الحرة: (اعلم أن الله تعالى متكلم؛ له كلام عند أهل السنة والجماعة، وأن كلامه قديم؛ ليس بمخلوق ولا مجعول ولا محدث)^(٣).

وقال البيهقي في الاعتقاد والهداية: (القرآن كلام الله عز وجل؛ وكلام الله صفة من صفات ذاته؛ ولا يجوز أن يكون شيء من صفات ذاته مخلوقاً ولا محدثاً ولا حادثاً؛ قال الله جل شأنه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

فلو كان القرآن مخلوقاً لكان الله سبحانه قائلاً له كن، والقرآن قوله، ويستحيل أن يكون قوله مقبولاً؛ لأن هذا يوجب قولاً ثانياً، والقول في القول الثاني وفي تعلقه بقول ثالث كالأول؛ وهذا يفضي إلى ما لا نهاية له، وهو فاسد، وإذا فسد ذلك فسد أن يكون القرآن مخلوقاً).

قلت: إن من الأشاعرة من قد حَمَلَ كلام الله تعالى وقوله في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزِلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ [الجن: ٦] وما كان مثلها من الآيات على أنها من قول جبريل عليه السلام كما قال الباقلاني في الإنصاف: (والجواب الثاني: أن قوله (تتلوا) يريد به بأمر من يتلو عليك، وهو جبريل عليه السلام، إلا أن التلاوة لما كانت بأمره أضافها إلى نفسه. وهذا صحيح يدل عليه الكتاب والمعنى الصحيح ...).

والقرآن من هذا مملوء إذا تتبع أنه يضيف الفعل إلى نفسه؛ وإن كان الفاعل له غيره لما كان بأمره ...

فالقرآن كلامه وصفته، وقَصَّ جبريل عليه السلام على الرسول ﷺ بالقرآن الذي

(١) (١٥٣-١٥٤).

(٢) (١٢٦).

(٣) عن كتاب موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٢/ ٥٤٠).

تضمن قصص الأولين وأخبارهم^(١).

وقد نص الإمام أبو الحسن الأشعري في الإبانة على أن الله تبارك وتعالى مُتَّصِفٌ بصفة الكلام على الحقيقة، وأنَّ كلامه أَسْمَعُهُ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، وَرَدَّ عَلَى كُلِّ شَبْهَةٍ أَوْرَدَهَا الْجَهْمِيَّةُ وَتَوَارِثَهَا الْمُنْتَسِبُونَ إِلَيْهِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِنَفْيِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْحَقِيقَةِ وَجَعَلَهُ كَلَاماً نَفْسِيّاً^(٢).

وكذا رد على من قال بخلق القرآن، فرأيت أن أنقل إحدى المسائل التي ذكرها، وهي من توفيق الله له في ذكرها رحمه الله؛ إذ قال في الإبانة: (مسألة: ويقال لهم: كما لا يجوز أن يخلق الله إرادته في بعض المخلوقات، كذلك لا يجوز أن يخلق كلامه في بعض المخلوقات، ولو كانت إرادة الله مخلوقة في بعض المخلوقات؛ لكان ذلك المخلوق هو المريد لها؛ وذلك يستحيل.

وكذلك يستحيل أن يخلق الله كلامه في مخلوق؛ لأن هذا يوجب أن ذلك المخلوق متكلم به، ويستحيل أن يكون كلام الله كلاماً مخلوقاً^(٣).

قال الغزالي في الاقتصاد في الاعتقاد: (أما إطلاقه لإرادة المقروء، فقد دل عليه كلام السلف رضي الله عنهم: أن القرآن كلام الله سبحانه غير مخلوق مع علمهم بأنهم وأصواتهم وقراءتهم وأفعالهم مخلوقة ...

وقال كافة السلف: القرآن كلام الله غير مخلوق^(٤).

وقال الشهرستاني في نهاية الإقدام: (قالت السلف والحنابلة: قد تقرر الاتفاق على أن ما بين الدفتين كلام الله، وأن ما نقرأه ونسمعه ونكتبه عين كلام الله، فيجب أن يكون الكلمات والحروف هي بعينها كلام الله، ولما تقرر الاتفاق على أن كلام الله غير مخلوق فيجب أن تكون الكلمات أزلية غير مخلوقة.

ولقد كان الأمر في أول الزمان على قولين: أحدهما القِدَم، والثاني الحدوث، والقولان

(١) (١٠٧).

(٢) (٦٥-٧٢).

(٣) (٦٧).

(٤) (١١٢).

مقصوران على الكلمات المكتوبة والآيات المقروءة بالألسن، فصار الآن إلى قول ثالث وهو حدوث الحروف والكلمات، وقَدِمَ الكلام، والأمر الذي تدل عليه العبارات، وقد حسن قول ليس منهما على خلاف القولين، فكانت السلف على إثبات القَدَم والأولية لهذه الكلمات دون التعرض لصفة أخرى ورائها، وكانت المعتزلة على إثبات الحدوث والخلقية لهذه الحروف والأصوات دون التعرض لأمر ورائها، فأبدع الأشعري قولاً ثابتاً وقضى بحدوث الحروف، وهو خرق الإجماع، وحكم بأن ما نقرأه كلام الله مجازاً لا حقيقة، وهو عين الابتداع، فَهَلَّا قال: وَرَدَّ السَّمْعُ بِأَن ما نقرأه ونكتبه كلام الله تعالى، دون أن يتعرض لكيفيته وحقيقته، كما وَرَدَّ السَّمْعُ بإثبات كثير من الصفات من الوجه واليدين، إلى غير ذلك من الصفات الخبرية.

قالت السلف: لا يظن الظان أننا ثبتت القَدَم للحروف والأصوات التي قامت بالستنا وصارت صفات لنا، فإننا على قَطْع نعلم افتتاحها واختتامها وتعلقها بأكسابنا وأفعالنا، وقد بَدَلَت السلف أرواحهم وصبروا على أنواع البلايا والمحن من معتزلة الزمان دون أن يقولوا القرآن مخلوق، ولم يكن ذلك على حروف وأصوات هي أفعالنا وأكسابنا، بل هم عرفوا يقيناً أن الله تعالى قولاً وكلاماً وأمرأ، وإن أمره غير خلقه، بل هو أزلي قديم يقدِّمه كما ورد ذلك في قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]، وفي قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، فالكائنات كلها إنما تتكون بقوله وأمره، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾، وإذ قلنا قال الله هذا كله قول قد ورد في السمع مضافاً إلى الله تعالى أخص إضافة من الخلق فإن المخلوق لا ينسب إلى الله تعالى إلا من جهة واحدة وهو الخلق والإبداع والأمر ينسب إليه لا على تلك النسبة وإلا فيرتفع الفرق بين الأمر والخلق والخلقيات والأمريات^(١).

قولهم في أسماء الله تبارك وتعالى هل أسماء الله تبارك وتعالى توقيفية أم لا؟

قال الغزالي في المقصد الأسنى: (الفصل الثالث: في بيان أن الصفات والأسماء المطلقة على الله تعالى هل تقف على التوقيف أو تجوز بطريق العقل؟ والذي مال إليه القاضي أبو بكر أن ذلك جائز إلا ما منع منه الشرع أو أشعر بما يستحيل معناه على الله تعالى. فأما ما لا مانع فيه فإنه جائز.

والذي ذهب إليه الشيخ أبو الحسن الأشعري عليه رحمة الله أن ذلك موقوف على التوقيف، فلا يجوز أن يطلق في حق الله تعالى ما هو موصوف بمعناه إلا إذا أذن فيه. والمختار عندنا ونقول: كل ما يرجع إلى الاسم فذلك موقوف على الإذن، وما يرجع إلى الوصف فذلك لا يقف على الإذن، بل الصادق منه مباح دون الكاذب، ولا يفهم هذا إلا بعد فهم الاسم والوصف^(١).

قال الجويني في الإرشاد: (وأسماء الله تعالى: ما ورد الشرع بإطلاقه في أسماء الله تعالى وصفاته أطلقناه، وما منع الشرع من إطلاقه منعناه، وما لم يرد فيه إذن ولا منع لم نقض فيه بتحليل ولا تحريم، فإن الأحكام الشرعية تتلقى من موارد السمع، ولو قضينا بتحليل أو تحريم من غير شرع لَكُنَّا مُثْبِتِينَ حُكْمًا دُونَ السَّمْعِ.

ثم لا نشترط في جواز الإطلاق ورود ما يقطع به في الشرع، ولكن ما يقتضي العمل وإن لم يوجب العلم فهو كاف، غير أن الأقيسة الشرعية من مقتضيات العمل، ولا يجوز التمسك بها في تسمية الرب ووصفه فأعلم^(٢).

قال عبد القاهر البغدادي في أصول الدين: (وقال أهل السنة إنها مأخوذة من

(١) (١٦٤-١٦٥).

(٢) (١٣٦).

التوقيف، وقالوا لا يجوز إطلاق اسم على الله من جهة القياس، وإنما يطلق من أسائه ما ورد به الشرع في الكتاب والسنة الصحيحة أو أجمعت الأمة عليه^(١).

قولهم في استواء الله على العرش

إن مسألة الاستواء من المسائل المهمة التي لا يجوز للمسلم أن يتجاوزها؛ بل يجب عليه معرفتها والإيمان بها وفق ما جاء عنها في الكتاب والسنة، إذ لا يتصور أن يعبد عبدُ رَبِّه ولا يعرف أين هو.

إن أهل السنة أصحاب الحديث اتفقت كلمتهم أنه سبحانه فوق عرشه كما أخبر في كتابه وأخبر عنه نبيه ﷺ وهو الذي فهمه أصحاب النبي ﷺ وآمنوا به ودعوا إليه، لكننا نرى الأشاعرة قد اختلفوا في ذلك اختلافاً بيّناً، وكانت لهم فيه مذاهب متعددة كما بيّن ذلك أئمتهم.

قال ابن فورك في تأويل مختلف الحديث: (ومن أصحابنا من قال أن القائل إذا قال إن الله تعالى في السماء ويريد بذلك أنه فوقها من طريق الصفة لا من طريق الجهة على نحو قوله سبحانه: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦] لم ينكر ذلك)^(١).

وقال عبد القاهر البغدادي في أصول الدين: (واختلف أصحابنا في هذا؛ فمنهم من قال: إن آية الاستواء من التشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وهذا قول مالك بن أنس وفقهاء المدينة والأصمعي ...

ومنهم من قال: إن استواءه على العرش فعل أخذته في العرش سمّاه استواء، كما أحدث في بنيان قوم فعلاً سمّاه إتياناً؛ ولم يكن ذلك نزولاً ولا حركةً، وهذا قول أبي الحسن الأشعري.

ومنهم من قال: إن استواءه على العرش كونه فوق العرش بلا محاسة، وهذا قول القلانسي وعبد الله بن سعيد، ذكره في كتاب الصفات.

والصحيح عندنا تأويل العرش في هذه الآية على معنى الملْك؛ كأنه أراد أن الملْك ما استوى لأحد غيره؛ وهذا التأويل مأخوذ من قول العرب: ثُلَّ عرْشُ فلان إذا ذهب

ملكه^(١).

وذهب الجويني إلى أن معنى الاستواء القهر والغلبة كما في الإرشاد: (فإن استدلوا بظاهر قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، فالوجه معارضتهم بآي يساعدوننا على تأويلها؛ منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، فנסألهم عن معنى ذلك، فإن حملوه على كونه معنًى بالإحاطة والعلم، لم يمتنع منّا حمل الاستواء على القهر والغلبة، وذلك شائع في اللغة؛ إذ تقول استوى فلان على الممالك إذا احتوى على مقاليد الملك واستعلى على الرقاب، وفائدة تخصيص العرش بالذكر أنه أعظم المخلوقات في ظن البرية، فنص تعالى عليه تنبيهاً بذكره على ما دونه.

فإن قيل: الاستواء بمعنى الغلبة عن سبق مكافحة ومحاوله.

قلنا: هذا باطل، إذ لو أنبأ الاستواء عن ذلك لأنبأ عنه القهر...

ولا يبعد حمل الاستواء على قصد الإله إلى أمر في العرش^(٢).

قلت: إن المعنى الأول الذي ذكره الجويني ومال إليه قد أبطله عبد القاهر البغدادي

في أصول الدين فقال: (اختلفوا في تأويل قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥].

فزعمت المعتزلة أنه بمعنى استولى كقوله الشاعر: قد استوى بشرٌ على العراق.

أي: استولى؛ وهذا تأويل باطل؛ لأنه يوجب أنه لم يكن مستولياً عليه قبل استوائه عليه^(٣).

ومن عجيب قول ابن فورك في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الملك:

١٦] قوله في مشكل الحديث: (على نحو ما تأولنا عليه قوله عز وجل: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مِّنَ فِي

(١) (١٣١).

(٢) (٥٩).

(٣) (١٣١).

السَّمَاءُ ﴿[الملك: ١٦] وذلك بمعنى القهر والتدبير﴾^(١).

وقد يَبَيِّنُ معنى ﴿فِي﴾ من نفس الكتاب على أنها بمعنى فوق؛ فقال: (إِنْ قَالَ قَائِلٌ: فما معنى الخبر، إذ لم يذكر فيه العلم، بل أطلقوا القول فقالوا: في الشرق وفي الغرب وفي السماوات وفي الأرض.

قيل: إِنْ صَحَّ هذا فمعناه أنه فوقها، واستعمال ﴿فِي﴾ بمعنى فوق ظاهر في اللغة منتشر، منه قوله عز وجل: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢] أي فوقها.

ومنه قوله: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦] أن المراد بذلك من فوقها^(٢). قال الإمام أبو الحسن الأشعري في الإبانة: (إِنْ قَالَ قَائِلٌ: ما تقولون في الاستواء؟ قيل له: نقول إِنْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَسْتَوِي عَلَى عَرْشِهِ استواء يليق به من غير طول استقرار كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥].

وقد قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلْبُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

وقال تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨].

وقال تعالى: ﴿يُدِيرُ الْأُمُورَ السَّمَاءُ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يُعْرِجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥].

وقال حاكياً عن فرعون لعنه الله: ﴿يَكْهَنُونَ ابْنَ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾^(٣) أَسْبَابُ السَّمَوَاتِ فَأَطْلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]. فكذَّب فرعون نبيَّ الله موسى عليه السلام أن الله فوق السماوات. وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ﴾ [الملك: ١٦].

فالسماوات فوقها العرش، فلما كان العرش فوق السماوات قال: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ يعني جميع السماوات، وإنَّما أراد العرش الذي هو أعلى السماوات ألا ترى الله تعالى ذكر السماوات فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِي تُوْرٍ﴾ [نوح: ١٦]، ولم يرد أن القمر يملأهن

جميعاً، وأنه فيهن جميعاً.

ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء؛ لأن الله تعالى مستوٍ على العرش الذي هو فوق السماوات، فلولا أن الله عز وجل على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش، كما لا يخطونها إذا دعوا إلى الأرض.

وقد قال قائلون من المعتزلة والحرورية: إن معنى قول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]؛ أنه استولى وملك وقهر، وأن الله تعالى في كل مكان، وجحدوا أن يكون الله عز وجل مستوٍ على عرشه، كما قال أهل الحق؛ وذهبوا في الاستواء إلى القدرة. ولو كان هذا كما ذكروه وكان لا فرق بين العرش والأرض السابعة؛ لأن الله تعالى قادر على كل شيء، والأرض الله سبحانه قادر عليها، وعلى الحشوش، وعلى كل ما في العالم، فلو كان الله مستوياً على العرش بمعنى الاستيلاء، وهو تعالى مستوٍ على الأشياء كلها لكان مستوياً على العرش، وعلى الأرض، وعلى السماء، وعلى الحشوش والأقدار؛ لأنه قادر على الأشياء مستولٍ عليها.

وإذا كان قادراً على الأشياء كلها لم يجوز عند أحد من المسلمين أن يقول إن الله تعالى مستوٍ على الحشوش والأخيلية، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، لم يجوز أن يكون الاستواء على العرش الاستيلاء الذي هو عام في الأشياء كلها، ووجب أن يكون معنى الاستواء يختص بالعرش دون الأشياء كلها^(١).

تنبيه:

قال عبد القاهر البغدادي في الفرق بين الفرق: (وأجمعوا على أنه لا يخويه مكان ولا يجري عليه زمان، خلاف قول من زعم من الشهابية والكرامية أنه محاسن لعرشه، وقد قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: أن الله تعالى خلق العرش إظهاراً لقدرته لا مكاناً لذاته، وقال أيضاً: (قد كان ولا مكان، وهو الآن على ما كان))^(٢).

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: (تنبيه: وقع في بعض الكتب في هذا الحديث: كان الله

(١) (٨٣).

(٢) (٣٢١).

ولا شيء معه، (وهو الآن على ما عليه كان)، وهي زيادة ليست في شيء من كتب الحديث، نبّه على ذلك العلامة تقي الدين بن تيمية^(١). قلت: وهذا المنسوب إلى الإمام علي رضي الله عنه لا أصل له في كتب الرواية ولا إسناده.

أما من حيث الدراية: فهو باطل المعنى، وفاسد المجنى؛ لمخالفته صريح القرآن والسنة، وفهم الصحابة والمنقول عنهم وعن خيار الأمة من أهل العلم والفضل من التابعين ومن بعدهم من أصحاب القرون الفاضلة.

ولما لم يكن غرضي في هذا الكتاب بيان عقيدة أهل السنة أصحاب الحديث، ولا الاسترسال في غبط القوم في مذهبهم، أردت التنبيه والتحذير من مثل هذه البلايا من النقول الفاسدة، والأقوال الكاسدة.

وإن تدبّرته رأيت أن التنبيه لا يخرج عن مقصد الكتاب؛ إذ يَحْتَجُّ بالأثر من ليس من أهل الأثر على عقيدة يحملون الناس عليها، فأبطل قولهم أقوامٌ ينسبون الحافظ ابن حجر إلى مذهبهم، وهو ليس كذلك.

وقال عبد القاهر البغدادي: (ولا يجري عليه زمان).

يمكن استشكال ظاهر لفظه بما قال الرازي في الأربعين: (فنقول: المراد من قولنا كان ويكون، استمراره مع الأزمنة الماضية والأزمنة الآتية من غير أن يكون متغيراً تغير هذه الأزمنة)^(٢).

وقد أثبت الرازي العلو بفطرته في تفسير سورة الفاتحة فقال: (ورفع محمداً عليه الصلاة والسلام، فجعل قاب قوسين تحته، وجعل الماء ناراً على قوم فرعون...)^(٣).

(١) (٢٨٩/٦).

(٢) (٩٤).

(٣) (٩٧/١).

من قولهم في صفة القدرة

قال أبو المظفر الإسفرائيني في التبصير في الدين: (ويجوز أن يقال أنه سبحانه وتعالى قادر على جميع المقدورات، ويستحيل أن يقال: أنه قادر على كل شيء على هذا الإطلاق؛ لأن القديم شيء يستحيل أن تتعلق به القدرة؛ والذي جاء في القرآن من إطلاق القول بأنه ﴿اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ دَخَلَهُ ضَرْبٌ مِنَ التَّخْصِصِ، ومعناه على كل شيء مقدور قدير)^(١).

لكننا نرى الرازي يفصح عن مصدر هذا الكلام ومنشؤه وأنهم الفلاسفة في كتابه الأربعين في أصول الدين إذ قال: (الفصل الأول حقيقة القادر ... وههنا للفلاسفة سؤالات ... السؤال الرابع: فالعدم الأصلي لا يصلح أن يكون العدم مقدوراً لوجهين: الأول: إن القدرة صفة مؤثرة، والعدم نفي محض فلا يكون للمقدور أثر البتة، فامتنع كون العدم مقدوراً.

الثاني: هو أن العدم الأصلي باق كما كان قبل ذلك، والباقي حال بقاءه لا يكون مقدوراً، فإذا ترك عبارة عن بقاء الشيء على عدمه الأصلي، والعدم الباقي لا يصلح أن يكون مقدوراً؛ نظراً إلى كونه عدماً؛ ونظراً إلى كونه باقياً، فثبت أن الترك لا يصلح أن يكون مقدوراً البتة، فلم يكن القادر قادراً إلا على الفعل، ولا قدرة له على الترك البتة. فثبت: أن القادر له صلاحية التأثير في الوجود، وليس له صلاحية الترك، فحينئذ ينقلب القادر موجباً، ولا يبقى بينه وبين الموجب فرق البتة.

فهذه مجموع أسئلة الفلاسفة في المقام الأول.

والجواب على السؤال الأول ...

وأما الجواب عن السؤال الرابع: فهو أن المراد من قولنا إنه قادر على الفعل والترك، هو أنه يمكن أن يفعل ويمكنه أن لا يفعل، بل يتركه كما كان، وعلى هذا الوجه يسقط هذا

السؤال.

فهذا مجموع الكلام في الفرق بين القادر وبين الموجب، وهو من أدق المباحث العقلية^(١).

وقال الجويني في الإرشاد: (ما علم الباري سبحانه أنه لا يقع من الحوادث فيإيقاعه مقدور له، ويتبين ذلك بالمثال أن إقامة الساعة مقدورة لله في وقتنا، وإن علم أنها لا تقع ناجزة، وقد اضطرب المتكلمون في هذا الفصل ولا محصول للاختلاف فيه عندي. فإن المعنى يكون المعلوم الذي لا يقع مقدوراً لله تعالى أنه في نفسه ممكن، وأن القدرة عليه في نفسها صالحة له، لا يقتصر تعلقها عنه حسب قصور تعلق القدرة الحادثة عن الألوان، فهذا المعنى يكون مقدوراً، ثم ما علم الله أنه لا يقع فإنه لا يقع قطعاً^(٢)).

(١) (١٢١-١٢٣).

(٢) (٢٠٥).

قولهم في قدرة العبد

قال أبو الحسن الأشعري في أصول أهل السنة والجماعة: (وأجمعوا على أن الإنسان لا يقدر بقدرة واحدة على مقدورين، كما أنه لا يعلم بعلم واحد يكتسبه شيئاً من تصرفه إلا بقدرة تخصه في حال وجوده، لأن التصرف لا يصح وجوده إلا بها، فلو وجد تصرفه مع عدم القدرة عليه لاستغنى في وجوده عنها، كما أنه لو وجدت الحركة مع عدم محلها لاستغنت في الوجود عنه ولم تحتج إليه)^(١).

قال أبو المعالي الجويني في البرهان في أصول الفقه: (ومذهب شيخنا رحمه الله أن القدرة الحادثة تقارن حدوث المقدور ولا تسبقه؛ وليس امتناع تقدمها متلقى من قضايا القدرة؛ فإن القدرة الأزلية متقدمة على الحوادث لا محالة؛ وإنها امتنع تقدم القدرة الحادثة على رأي أبي الحسن رحمه الله من جهة اعتقاده استحالة بقائها؛ وهذا مطرد عنده في الأعراض أجمع، ولو تقدمت القدرة لعدمت عند حدوث المقدور، فلا يكون المقدور متعلقاً للقدرة؛ وذلك مستحيل عنده؛ فكان اشتراطه اقتران القدرة الحادثة بالمقدور مأخوذاً مما نهت عليه من أصله.

ومذهب أبي الحسن رحمه الله يختبط عندي في هذه المسألة؛ فأما مصيره إلى تعلق القدرة الحادثة بالحدث في حال حدوثه، فلست ألتزم الآن ذكر مباحثي عنه، ولكن أكشف السر في مقصود المسألة وأضمنه رمزاً ليستقل به المستقل البصير فيما هو المختار الحق.

ولتقع البداية أولاً بعرض المسألة فأقول:

أولاً: لا حاصل لتعلق حكم الأمر بالقدرة على مذهب أبي الحسن رحمه الله؛ فإن القاعد في حال قعوده مأمور بالقيام باتفاق أهل الاسلام وله قدرة على القيام عند أبي الحسن في حالة القعود؛ فكيف يستتب له تلقي حكم تعلق الأمر من تعلق القدرة ومن لا قدرة له أصلاً مأمور عنده، ثم لو تنزلنا على حكمه في المصير إلى أن الحادث مقدور

فيستحيل مع ذلك كونه مأموراً به؛ فإنَّ اقتران القدرة بالحادث معناه أنه بها وقع، وهي في اقتضاها له، نازلة معه منزلة العلة المقترنة بالمعلول الموجبة على رأى من يثبت العلة والمعلول؛ فهذا وجه هذه المسألة إن اتجه.

وإن تفتن ذكي لوجه الحق خطر له في معارضة ذلك أن القدرة لا توجب المقدور لعينها؛ إذ لو أوجبه لاستحال خلو القدرة عن المقدور؛ وذلك يبطل إثبات القدرة الأزلية فإنها غير مقارنة للحوادث؛ ولو فرض اقتران العالم بها لكان أزلياً، والأزلي يستحيل أن يكون مقدوراً، وفي خروجه عن كونه مقدوراً سقوط القدرة؛ فإن القدرة من غير مقدور محال.

ومن أنصفَ مِنْ نَفْسِهِ عَلِمَ أن معنى القدرة التمكن من الفعل، وهذا إنما يعقل قبل الفعل، وهو غير متخيل في واقع حادث في حالة الحدوث.

فلو سلمَ مُسَلِّمٌ لأبي الحسن رحمه الله ما قاله في القدرة جدلاً مِنْ تزييل القدرة مع المقدور منزلة العلة مع المعلول، وهيهات أن يكون الأمر كذلك؛ ولو كان فلا يتحقق معه كون الحادث مأموراً به؛ فإن الأمر طلب واقتضاء، وكيف يتصور أن يطلب كائن وَيَقْتَضِي حاصلٌ، فقد لاح سقوط مذهبه في كل تقدير.

نعم، قد يقال في الحادث: هذا هو الذي أُمِرَ المخاطبُ به؛ فإما أن ينجزم القول في تعلق الأمر به طلباً واقتضاءً مع حصوله فلا يَرْتَضِي هذا المذهب لنفسه عاقل^(١).

قال الشيخ محمد السنوسي في أم البراهين: (وقدرتنا أيضاً مثل ذلك عَرَضُ مخلوق لمولانا جل وعز تقارن تلك الأفعال الاختيارية وتعلق بها من غير تأثير لها في شيء من ذلك أصلاً، وإنما أجرى الله تعالى العادة أن يخلق عند تلك القدرة لا بها، ما شاء من الأفعال، وجعل الله سبحانه وجود تلك القدرة مقارنة للفعل مشروطاً في وجوب التكليف، وهذا الاقتران والتعليق لهذه القدرة الحادثة بتلك الأفعال من غير تأثير لها أصلاً هو المسمى في الاصطلاح وفي الشرع بالكسب والاكساب، وبحسبه تضاف الأفعال إلى العباد كقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وأما الاختراع والإيجاد فهو من خواص مولانا جل وعز، لا يشاركه فيه شيء سواه تبارك وتعالى.

ويسمى العبد عند خلق الله تعالى في هذه القدرة المقارنة للفعل^(١).

وقد شرح الشيخ محمد الدسوقي هذا الكلام بعبارات واضحة خلاصتها ما قال في حاشيته: (والحاصل أن الكسب يطلق على كل المقدور وعلى اقتران القدرة بالمقدور، وقيل: إنَّ صرف العبد قدرته وإرادته إلى الفعل كسب، وإيجاد الله للفعل عقب ذلك خلق، فالمقدور الواحد دخل تحت قدرتين، لكن بجهتين مختلفتين؛ فالفعل مقدور لله تعالى بجهة الإيجاد، ومقدور للعبد بجهة الكسب.

إذا علمت ذلك تعلم أن قول الشارح: المسمى في الاصطلاح، مراده اصطلاح الأشعري ومن تبعه، لا اصطلاح كل المتكلمين.

(قوله: وبحسبه) أي وبحسب الكسب تضاف الأفعال للعبد، أي كما أنها تضاف لله بحسب الخلق والاختراع، ولما أضيفت الأفعال للعبد من جهة الكسب أثيب وعوقب عليها نظراً لما عنده من الاختيار الذي هو سبب عادي في إيجاد الله الفعل والقدرة عليه، ثم إن العبد مختار بحسب الظاهر، وإلا فمآله للجبر؛ لأن اختياره بخلق الله؛ فالعبد مختار ظاهراً، مجبورٌ باطناً؛ فهو مجبور في صورة مختار، خلافاً للمعتزلة القائلين: إنه مختارٌ ظاهراً وباطناً، وللجبرية القائلين: أنه مجبورٌ ظاهراً وباطناً).

تكليف ما لا يطاق

قال البغدادي في أصول الدين: (واختلفوا في صفة المأمور، فمن أجاز تكليف العاجز وتكليف المحالات قال: يجب أن يكون المأمور كامل العقل ليصح كونه عالماً بأنه مأمور. ومن أحال من أصحابنا تكليف العاجز وتكليف المحالات قال: يحتاج المأمور في حال تضيق الوجوب عليه إلى كمال العقل وإلى أن يكون قادراً إما على العقل وإما على تركه لكي يصح منه الطاعة بفعل المأمور به أو المعصية بتركه. ويجب على هذا القول أن يكون عالماً بصفات ما أمر به وشروطه؛ وفي حكم العالم بذلك من يصح منه النظر المؤدي إلى المعرفة.

ويجب على هذا القول أن يكون الدليل منصوباً على ما كلف به)^(١).

فأنت ترى أن عبد القاهر البغدادي قد عمد إلى التنبيه على أن من أجاز التكليف بما لا يطاق أو يطاق باعتبار كمال العقل ليكون عالماً بأنه مأمور ويثبت أن من منع ذلك قال: إن المأمور يحتاج في حال التضيق عليه إلى كمال عقل وقدرة على الفعل والترك. قال الغزالي في الاقتصاد في الاعتقاد: (إن الله تعالى أن يكلف العباد ما يطيقونه وما لا يطيقونه، وذهبت المعتزلة إلى إنكار ذلك

والدليل الثاني في المسألة، ولا محيص لأحد عنه، أن الله تعالى كلف أبا جهل أن يؤمن، وعلم أنه لا يؤمن، وأخبر عنه بأنه لا يؤمن، فكأنه أمر بأن يؤمن بأنه لا يؤمن، إذ كان من قول الرسول ﷺ إنه لا يؤمن وكان هو مأموراً بتصديقه، فقد قيل له صدق بأنك لا تصدق، وهذا محال.

وتحقيقه أن خلاف المعلوم محال وقوعه ولكن ليس محالاً لذاته، بل هو محال لغيره، والمحال لغيره في امتناع الوقوع كالمحال لذاته، ومن قال: إن الكفار الذين لم يؤمنوا ما كانوا مأمورين بالإيمان فقد جحد الشرع، ومن قال كان الإيمان منهم متصوراً مع علم الله

سبحانه وتعالى بأنه لا يقع، فقد اضطر كل فريق إلى القول بتصور الأمر بما لا يتصور امتثاله، ولا يغني عن هذا قول القائل إنه كان مقدوراً عليه وكان للكافر عليه قدرة، أما على مثلنا فلا قدرة قبل الفعل ولم تكن لهم قدرة إلا على الكفر الذي صدر منهم، وأما عند المعتزلة فلا يمتنع وجود القدرة ولكن القدرة غير كافية لوقوع المقدور بل له شرط كالإرادة وغيرها، ومن شروطه أن لا ينقلب علم الله تعالى جهلاً.

والقدرة لا تتراد لعينها بل لتيسير الفعل بها، فكيف يتيسر فعل يؤدي إلى انقلاب العلم جهلاً؟ فاستبان أن هذا واقع في ثبوت التكليف بما هو محال لغيره، فكذا يقاس عليه ما هو محال لذاته، إذ لا فرق بينهما في إمكان التلفظ، ولا في تصور الاقتضاء، ولا في الاستقباح والاستحسان^(١).

قال أبو الحسن الأشعري في الإبانة: (ويقال لهم: أليس قد قال الله تبارك وتعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [المسد: ١-٣]، وأمره مع ذلك بالإيمان؛ فأوجب عليه أن يعلم أنه لا يؤمن، وأن الله صادق في إخباره عنه أنه لا يؤمن، وأمره مع ذلك أن يؤمن، ولا يجتمع الإيمان والعلم بأنه لا يكون، ولا يقدر على أن يؤمن وأن يعلم أنه لا يؤمن. وإذا كان هذا هكذا، فقد أمر الله سبحانه أباهب بما لا يقدر عليه؛ لأنه أمره أن يؤمن، وأنه يعلم أنه لا يؤمن^(٢)).

قال أبو الحسن الأشعري في أصول أهل السنة والجماعة: (وأجمعوا على أن الله عز وجل قد كلف الكافر الإيمان والتصديق بنبيه ﷺ، وإن كانوا غير عاملين بذلك؛ لأن النبي ﷺ قد أوضح لهم الدلالة ولزمهم حكم الدعوة، وإننا وجب عليهم من إيجاب الله عز وجل له، وطريق معرفتهم بذلك العقول التي جعلت آلة تمييزهم، وأنهم أنهوا في الجهل في ذلك من قبل إعراضهم عن تأمل ما دعوا إلى تأمله من الأدلة التي جعل لهم بها السبيل إلى معرفة وجوب ما دعوا إليه من النظر في آياته التي أزعج بخرق العادات فيها قلوبهم

(١) (١٥١).

(٢) (١٩٤/١).

وحرّك بها دواعي نظرهم.

وأجمعوا على أنهم يستحقون الذم بإعراضهم وتشاغلهم بما نهوا عنه عن التشاغل به. وأجمعوا على أن الكافرين غير قادرين على العلم بما دعوا إليه مع تشاغلهم بالإعراض عنه وإيثارهم الجهل عليه مع كونهم غير عاجزين عن ذلك ولا ممنوعين منه لصحة أبدانهم وقدرتهم على ما تشاغلوا به من الإعراض عنه وآثروا من الجهل عليه، وإنما أتوا في ذلك من جهة إعراضهم عنه وسوء الاختيار بالتشاغل بتركه، ولو كرهوا ما هم عليه من الإعراض عن تأمل أدلة الله التي نبههم نبيه ﷺ عليها ودعاهم إلى تأملها لنهاهم ذلك وحصل لهم العمل به والقدرة عليه^(١).

قال الجويني في الإرشاد: (فإن قيل قد شاع من مذهب شيخكم تجويز تكليف ما لا يطاق، فأوضحوا ما ترضونه منه وأيدوه بالدليل بعد تصوير المسألة.

قلنا: تكليف ما لا يطاق تكثر صورته، فمن صورته تكليف جمع الضدين، وإيقاع ما يخرج عن قبيل المقدورات.

والصحيح عندنا أن ذلك جائز عقلاً غير مستحيل.

واختلف جواب شيخنا رضي الله عنه تكليف من لا يعلم كالمغشي عليه والميت. والدليل على جواز تكليف المحال الاتفاق على جواز تكليف العبد القيام كونه قاعداً حالة توجه الأمر عليه.

وقد أقمنا الدليل القاطع على أن القاعد غير قادر على القيام، فإذا كان القيام مأموراً به قبل القدرة عليه وإن كان ذلك غير ممكن فلا يبقى لاستحالة تكليف المستحيل وجه.

فإن قيل: القيام ممكن على الجملة بخلاف جمع الضدين.

قيل: وقوع القيام مقدوراً من غير قدرة عليه مستحيل كجمع الضدين، وإنما المأمور به قيام مقدور عليه

فإن قالوا الأمر بالضدين ينبيء عن طلب جمعهما، وطلب الجمع يتطلب إرادة، وإرادة جمع الضدين مستحيلة.

قلنا: هذا مبني على أن المأمور به يجب أن يكون مراداً للأمر، وليس الأمر كذلك عندنا؛ فإن الرب تعالى يأمر الكافر بالإيمان وإذا كان شقيماً في حكمه لا يريد منه وقوع الإيمان.

فإن قيل: ما جوزتموه عقلاً هل اتفق وقوعه شرعاً؟

قلنا: قال شيخنا: ذلك واقع شرعاً؛ فإن الله تعالى أمر أباهب بأن يصدق النبي ويؤمن به في جميع ما يخبر به، وما أخبر به أنه لا يؤمن به، فقد أمره أن يصدقه بأنه لا يصدقه، وذلك جمع بين نقيضين، وقد نطقت أي من كتاب الله تعالى بالاستعاذة من تكليف ما لا طاقة به فقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فلو لم يكن ذلك ممكناً لما ساءت الاستعاذة منه^(١).

قال الجويني في البرهان في أصول الفقه: (فقد نقل الرواة عن الشيخ أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه أنه كان يجوز تكليف ما لا يطاق، ثم نقلوا اختلافاً عنه في وقوع ما جوزه من ذلك، وهذا سوء معرفة بمذهب الرجل؛ فإن مقتضى مذهبه أن التكليف كلها واقعة على خلاف الاستطاعة وهذا يتقرر من وجهين:

أحدهما: أن الاستطاعة عنده لا تتقدم على الفعل، والأمر بالفعل يتوجه على المكلف قبل وقوعه وهو إذ ذاك غير مستطيع، ولا يدفع ذلك قول القائل: إن الأمر بالفعل نهي عن أضداده، والمأمور بالفعل قبل الفعل إن لم يكن قادراً على الفعل فهو قادرٌ على ضده من أضداده ملابس له، فإننا سنوضح أن الأمر بالشيء لا يكون نهياً عن أضداده، وأيضاً فإن القدرة إذا قارنت الضد لم تقارن الأمر بالفعل والفعل مقصودٌ مأمورٌ به وقد تحقق طلبه قبل القدرة عليه فهذا أحد الوجهين.

والثاني أن فعل العبد عنده واقع بقدرة الله تعالى، والعبد مطالب بما هو من فعل ربه، ولا ينبغي من ذلك تمويه المموه بذكره الكسب، فإننا سنذكر سر ما نعتقده في خلق الأعمال إذ لا يحتمله هذا الموضع.

فإن قيل: فما الصحيح عندكم في تكليف ما لا يطاق؟

قلنا: إن أريد بالتكليف طلب الفعل فهو فيما لا يطاق محال من العالم باستحالة وقوع المطلوب، وإن أريد به ورود الصيغة وليس المراد بها طلباً كقوله سبحانه وتعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، فهذا غير ممتنع، فإن المراد بذلك: كَوْنُهُمْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ، فكانوا كما أردناهم، وأما سر ما نعتقد في خلق الأعمال فلا يحتمله هذا الموضع؛ فإن قيل قد كلف الله تعالى أبا جهل أن يصدقه فيما يخبر به وكان سبحانه وتعالى أخبر بأنه لا يصدقه فكان هذا تكليفاً منه أن يصدقه بأنه لا يصدقه وهذا طلب جمع النقيضين، قلنا: لا يصح تكليف التصديق على هذا الوجه على معنى تحقيق الطلب، ولكن كلفه الإيمان به وتصديق رسله والتزام شرائعه، فأما تكليفه الجمع بين نقيضين في التصديق فلا.

فإن قيل: ما عَلِمَ الله تعالى أنه لا يكون وأخبر على وفق علمه بأنه لا يكون فلا يكون، والتكليف بخلاف المعلوم جائز.

قلنا: إنما يسوغ ذلك؛ لأن خلاف المعلوم مقدور في نفسه، وليس امتناعه للعلم بأنه لا يقع، ولكن إذا كان لا يقع مع إمكانه في نفسه فالعلم يتعلق به على ما هو عليه، وتعلق العلم بالمعلوم لا يغيره ولا يوجبه بل يتبعه في النفي والإثبات، ولو كان العلم يؤثر في المعلوم لما تعلق العلم بالقديم سبحانه وتعالى، وتقرير ذلك في فن الكلام.

فهذا منتهى الغرض في منع تكليف ما لا يطاق.

فنعود بعده إلى المقصود بالفصل في ذكر من يكلف وما يقع التكليف به.

فالقول الوجيز: أنه يكلف المتمكن، ويقع التكليف بالممكن، ولا نظر إلى الاستصلاح ونقيضه^(١).

قال الإيجي في المواقف: (المقصد السابع: المتن، تكليف ما لا يطاق جائز عندنا لما قدمنا آنفاً من أنه لا يجب عليه شيء، ولا يقبح منه شيء، إذ يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه. ومنعه المعتزلة لقبحه عقلاً.

فإنَّ من كلف الأعمى نقط المصاحف والزَّمَنِي^(١) المشي إلى أقاصي البلاد وعَبْدَه
الطيران إلى السماء عد سفيهاً، وقبح ذلك في بداية القول وكان كأمر الجهاد.
واعلم أن ما لا يطاق على مراتب:

أدناها: أن يمتنع الفعل لعلم الله بعدم وقوعه أو إرادته أو إخباره، فإن مثله لا تتعلق
به القدرة الحادثة؛ لأن القدرة مع الفعل، ولا تتعلق بالضدين.
والتكليف بهذا جائز، بل واقع إجماعاً، وإلا لم يكن العاصي بكفره وفسقه مكلفاً.
وأقصاها: أن يمتنع لنفس مفهومه كجمع الضدين وقلب الحقائق وجواز التكليف
به فرع تصوره.

فمنا من قال: لو لم يتصور لامتنع الحكم بامتناع تصوره وطلبه.
ومنهم من قال: طلبه يتوقف على تصوره واقعاً وهو مُتَنَفِّ ههنا.
فإنه إنما يتصور إما منفياً بمعنى أنه ليس لنا شيء موهوم أو محقق هو اجتماع الضدين
أو بالتشبيه بمعنى أن يتصور اجتماع المتخالفين كالسواد والحلاوة ثم يحكم بأن مثله لا
يكون بين الضدين، وذلك غير تصور وقوعه ولا مستلزم له.
صرَّح ابن سينا به، ولعله معنى قول أبي هاشم: العلم بالمستحيل علم لا معلوم له
ومراد من قال المستحيل لا يعلم.

المرتبة الوسطى: أن لا يتعلق به القدرة الحادثة عادة؛ سواء امتنع تعلقها به لا لنفس
مفهومه كخلق الأجسام أم لا كحمل الجبل والطيران إلى السماء فهذا نجوزه وإن لم يقع
بالاستقراء ولقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وتمنعه
المعتزلة.

وبه يعلم أن كثيراً من أدلة أصحابنا مثل ما قالوه في إيمان أبي لهب نصب للدليل في
غير محل النزاع، امتناع طلبه إلى غير ذلك من الأحكام الجارية عليه.
ومنهم من قال: طلبه يتوقف على تصوره واقعاً؛ أي ثابتاً؛ لأن الطالب لثبوت شيء

(١) أي: المرصّي.

لابد أن يتصور أولاً مطلوبه على الوجه الذي يتعلق به طلبه ثم يطلبه.
وهو أي التصور على وجه الوقوع والثبوت متتفٍ ههنا؛ أي في الممتنع لنفس مفهومه؛
فإنه يستحيل تصوره ثابتاً.

وذلك لأن ماهيته من حيث هي هي تقتضي انتفاءه، وتصور الشيء على خلاف ما
تقتضيه ذاته لذاته لا يكون تصوراً له بل لشيء آخر؛ كمن يتصور أربعة ليست بأزواج؛ فإنه
لا يكون متصوراً للأربعة قطعاً؛ بل الممتنع لذاته إنما يتصور على أحد وجهين.
إما منفيّاً بمعنى أنه ليس لنا شيء موهوم أو محقق هو اجتماع الضدين أو بالتشبيه
بمعنى أن يتصور اجتماع المتخالفين كالسواد والحلاوة ثم يحكم بأن مثله لا يكون بين
الضدين، وذلك - أي تصوره على أحد هذين الوجهين - كافٍ في الحكم عليه دون طلبه
لأنه غير تصور وقوعه وثبوته ولا مستلزم له، صرح ابن سينا به؛ أي بأن تصوره كذلك؛
كما نقلناه عنه في باب العلم.
ولعله معنى قول أبي هاشم: العلم بالمستحيل علم لا معلوم له، كما أشرنا إليه هناك
أيضاً.

ولعله مراد من قال: المستحيل لا يعلم أي لا يعلم من حيث ذاته وماهيته.
المرتبة الوسطى من مراتب ما لا يطاق: أن لا يتعلق به القدرة الحادثة عادة؛ سواء
امتنع تعلقها به لا لنفس مفهومه بأن لا يكون من جنس ما تتعلق به كخلق الأجسام فإن
القدرة الحادثة لا تتعلق بإيجاد الجوهر أصلاً أم لا بأن يكون من جنس ما تتعلق لكن يكون
من نوع أو صنف لا تتعلق به كحمل الجبل والطيران إلى السماء، ولقوله تعالى: ﴿لَا
يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وتمنعه المعتزلة لكونه قبيحاً عندهم.
وبه - أي بما ذكرناه من التفصيل وتحرير المتنازع فيه - يعلم أن كثيراً من أدلة أصحابنا
مثل ما قالوه في إيمان أبي لهب وكونه مأموراً بالجمع بين المتناقضين نصب للدليل في غير
النزاع إذ لم يجوزه أحد.

ولقائل أن يقول ما ذكره من أن جواز التكليف بالممتنع لذاته فرع تصوره وإن بعضاً

منا قالوا تصوره يشعر بأن هؤلاء يجوزونه^(١).

وقال: (وأيضاً فإنه - أي هذا الدليل - كما ينفي الحسن والقبح العقليين ينفي أيضاً الحسن والقبح الشرعيين المتفرعين على ثبوت التكليف.

وإذا كان العبد مجبوراً لم يثبت عليه تكليف لأنه تكليف ما لا يطاق، ونحن لا نجوزة، وأنتم وإن جوزتموه فلا تقولون بوقوعه، ولا يكون كل التكاليف كذلك؛ أي تكليفاً بها لا يطاق، كما لزم من دليلكم.

والحاصل أن كون العبد مجبوراً ينافي كونه مكلفاً؛ فلا يوصف فعله بحسن ولا قبح شرعي مع أنها ثابتان عندكم، فانتقض دليلكم بهما، فما هو جوابكم فهو جوابنا. والأظهر أن يقال: أنه ينفي الشرعيين أيضاً؛ لأنها من صفات الأفعال الاختيارية؛ فإن حركة المرتعش والنائم والمغمى عليه لا توصف في الشرع بحسن ولا قبح؛ ويستلزم أيضاً كون التكاليف بأسرها تكليفاً بها لا يطاق، ولا قائل به^(٢).

قال ابن الوزير في الروض البسام: (الوهم الخامس عشر: وهم المعارض أن مذهبهم: القول بجواز تكليف ما لا يطاق وليس كذلك؛ فلم يذهب إلى هذا منهم إلا الأشعري والرازي على اختلاف شديد في نقل مذهب الأشعري في ذلك، وقد صرح الرجال برّد هذا المذهب ونقض شبه من ذهب إليه.

وقد ذكرت آنفاً أنه لو لزمهم مذهب من ينسب إليهم للزم المعتزلة والزيدية كثير من المذاهب الباطلة، وقد ردّ الغزالي على من قال بذلك.

وبالغ الجويني في (البرهان) في إبطال هذا القول، وكذلك ابن الحاجب في (مختصر المنتهى)، وكذلك شراحه من الأشعرية، وذلك معروف في مواضعه فلا نطوّل بنقل ألفاظهم فيه^(٣).

(١) (٣/ ٢٩٠).

(٢) (٣/ ٢٧٢).

(٣) (٢/ ٣٩).

قولهم في حياة الميت في القبر

قال الباقلاني في الإنصاف: (ويجب أن يعلم أن كل ما ورد به الشرع من عذاب القبر، وسؤال منكر ونكير، ورَدُّ الروح إلى الميت عند السؤال، ونصب الصراط والميزان والحوض والشفاعة للعصاة من المؤمنين، كل ذلك حق وصدق، ويجب الإيمان والقطع به؛ لأنَّ جميع ذلك غير مستحيل في العقل)^(١).

وقال الجويني في الإرشاد: (باب جمل من أحكام الآخرة المتعلقة بالسمع. فمنها إثبات عذاب القبر، ومسألة منكر ونكير، والذي صار إليه أهل الحق إثبات ذلك؛ فإنه من مجوزات العقول؛ والله مقتدر على إحياء الميت، وأمر المملكين بسؤاله عن ربه ورسوله، وكل ما جوزه العقل وشهدت له شواهد السمع لزم الحكم بقبوله. وقد تواترت الأخبار باستعاذة رسول الله ﷺ بربه من عذاب القبر)^(٢).

ثم قال الجويني مخصصاً ذلك العموم في مسألة وقوع السؤال على المكلف في قبره بأن خصه ببعض أجزائه؛ فقال في الإرشاد: (ثم اعلموا أن المرضي عندنا أن السؤال يقع على أجزاء يعلمها الله تعالى من القلب أو غيره فيحييها الرب تعالى فيتوجه السؤال عليها، وذلك غير مستحيل عقلاً).

قلت: وهذا الكلام هو خلاصة ما ذكره في العقيدة النظامية فقال: (إذا أراد رد الأرواح إلى قبورها ردها، ثم الوجه عندي في ذلك أن يقال: الفاهم من الإنسان في حياته أجزاء لطيفة من قلبه، أو من دماغه، وجوارح العمل مستخدمة لتلك الأجزاء الفاهمة المدبرة لليد والرجل واللحوم والعصل والعظام حظ من العلم.

فعل الله تعالى وهو العالم بسر غيبه يرد الروح إلى تلك الأجزاء اللطيفة ويميلها إلى صورة شاءها.

(١) الإنصاف (٤٨).

(٢) الإرشاد (٣١٧-٣١٨).

وسؤال الملكين يتوجه عليها وهي التي كانت تفهم استمرار الحياة وهذا يدرأ تمويه الملحدة^(١).

قال ابن الهمام في المسامرة في العقائد المنجية في الآخرة: (وغاية ما يقتضي إعادة الحياة إلى الجزء الذي به فهم الخطاب ورد الجواب)^(٢).

وقال محمد بن محمد بن أبي شريف في المسامرة شرح المسامرة: (والإنسان قبل موته لم يكن يفهم بجميع بدنه، بل بجزء من باطن قلبه، وإحياء جزء يفهم الخطاب ويحجب ممكن مقدور عليه، وأمور البرزخ لا تقاس على أمور الدنيا)^(٣).

لكنّا نرى الغزالي وجّه هذا المعنى إلى الذي تنائر وتفرق في البحار وبطون السباع والأسماك وعموم الخلق فقال في الاقتصاد في الاعتقاد: (وأما الذي تأكله السباع فغاية ما في الباب أن يكون بطن السبع قبراً فأعاد الحياة إلى جزء يدرك العذاب ممكن فما كل متألم يدرك الألم من جميع بدنه)^(٤).

لكن البيهقي أدخل على باب التجويز لا على باب الترجيح إمكان تعذيب جزء من البدن دون الآخر؛ فقال في الاعتقاد والهداية: (وروي في حديث البراء بن العازب عن النبي ﷺ في قصة عذاب القبر: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان.

قال الشيخ: وإعادة الروح في جزء واحد، وتعذيب جزء واحد عما يجوز في العقل، وليس في تعريف الأجزاء استحالة ما وردت به الأخبار في عذاب القبر، وهو كما شاء الله، ولن شاء الله، وإلى ما شاء الله، نعوذ بالله من عذاب القبر)^(٥).

لكن الإسفراييني أطلق كلامه في وقوع النعيم والعقاب على البدن بإحياء الله له؛ فقال في التبصير في الدين: (وأخبر أنهم يحيون في القبور، ويسألون عن الدين، ثم يعاقب

(١) (٧٨).

(٢) (٢٢٤).

(٣) (٢٢٥).

(٤) (١٨٣-١٨٢).

(٥) (١٤٩).

العصاة، وينعم أهل الطاعات إلى وقت المحشر^(١).
ونص الحافظ ابن حجر في الفتح أن الحياة تكون للجسد لا لجزء منه؛ قال في الفتح:
(وفيه: فتردّ روحه في جسده.

وفيه: فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟
فيقول: ربي الله.

فيقولان له: ما دينك؟

فيقول: ديني الإسلام.

فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟

فيقول: هو رسول الله.

فيقولان له: وما يدريك؟

فيقول: قرأت القرآن كتاب الله فأمنت به وصدقت فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ

الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وفيه: وأن الكافر تعاد روحه في جسده؛ فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك
فيقول: هاه هاه لا أدري^(٢).

وقال في الفتح: (وحينئذ كانت الروح قد أعيدت إلى الجسد)^(٣).

وقال ابن بطال في شرح صحيح البخاري: (قال أبو بكر بن مجاهد: أجمع أهل السنة
أن عذاب القبر حق، وأن الناس يُفتنون في قبورهم بعد أن يُحيوا فيها ويُسألوا فيها، وثبت
الله من أحب تثبيته منهم)^(٤).

قال البيجوري في تحفة المريد: (فيعيد الله تعالى الروح إلى جميع البدن كما ذهب إليه
الجمهور، وهو ظاهر الأحاديث)^(٥).

(١) (١٤٨).

(٢) (٢٣٤ / ٣).

(٣) (٢٣٥ / ٣).

(٤) (٣٥٨ / ٣).

(٥) (١٨٤).

وقال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم: (ثم المعذب عند أهل السنة الجسد بعينه أو بعضه بعد إعادة الروح إليه أو إلى جزء منه

قال أصحابنا: هذا فاسد؛ لأن الألم والإحساس إنما يكون في الحي.

قال أصحابنا: ولا يمنع من ذلك كون الميت قد تفرقت أجزأؤه كما نشاهد في العادة أو أكلته السباع أو حيتان البحر أو نحو ذلك، فكما أن الله تعالى يعيده للحشر، وهو سبحانه وتعالى قادر على ذلك، فكذا يعيد الحياة إلى جزء منه أو أجزاء وإن أكلته السباع والحيتان^(١).

وقال في شرحه على صحيح مسلم: (قال أصحابنا: وأما إقاعاده المذكور في الحديث فيحتمل أن يكون مختصاً بالمقبور دون المنبوذ، ومن أكلته السباع والحيتان. وأما ضربه بالمطارق فلا يمتنع أن يوسع له في قبره فيقعده ويضرب، والله أعلم^(٢)).

(١) (٢٤٨/٩).

(٢) (٢٤٨/٩).

قولهم في الكفر

لقد تنوع كلام الأشاعرة في معنى الكفر وما يكفر بسببه.
قال أبو بكر الباقلاني في تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل: (إن قال قائل: وما الكفر عندكم؟

قيل له: هو ضد الإيمان؛ وهو الجهل بالله عز وجل؛ والتكذيب به؛ الساتر لقلب الإنسان عن العلم به؛ فهو كالمغطي للقلب عن معرفة الحق.
ومنه قول الشاعر:

في ليلة كَفَرَ النجومَ غماؤها. أي: غطاها.

ومنه قولهم: زيد متكفر بسلاحه.

ومنه سمي مغطي الزرع كافراً.

وقد يكون الكُفْرُ بمعنى التكذيب والجدد والإنكار؛ ومنه قولهم كَفَرَنِي حَقِّي أي: جحدني.

وليس في المعاصي كفر غير ما ذكرناه، وإن جاز أن يسمى أحياناً ما جعل علماً على الكفر كفراً؛ نحو عبادة الأفلak والنيران، واستحلال المحرمات، وقتل الأنبياء، وما جرى مجرى ذلك؛ مما ورد به التوقيف؛ وصحَّ الإجماع على أنه لا يقع إلا من كافر بالله؛ مكذب له؛ وجاحد له^(١).

قال عضد الدين الإيجي في المواقف: (المقصد الثالث: في الكفر: وهو خلاف الإيمان؛ فهو عندنا عدم تصديق الرسول في بعض ما علم بحجته ضرورة.

فإن قيل: فسادُ الزنار ولبس الغيار بالاختيار لا يكون كافراً إذا كان مصداقاً له في الكل، وهو باطلٌ إجماعاً.

قلنا: جعلنا الشيء الصادر عنه باختياره علامةً للتكذيب؛ فحكمنا عليه بذلك؛ أي

بكونه كافراً غير مصدق.

ولو علم أنه شدّ الزنار لا لتعظيم دين النصارى واعتقاد حقيقته لم يحكم بكفره فيما بينه وبين الله كما مرّ في السجود للشمس.

لا يقال أطفال المؤمنين لا تصديق لهم، فيلزم أن يكونوا كفاراً لا مؤمنين، وهو باطل؛ لأننا نقول: هم مصدقون حكماً لما علم من الدين ضرورة أنه يجعل إيمان أحد الأبوين إيماناً للأولاد.

وهو - أي الكفر - عند كل طائفة مقابل ما فسّر به الإيثار، كما هو عندنا مقابل ما فسرناه به.

فمن قال: الإيثار معرفة الله، قال: الكفر هو الجهل بالله. وبطلانه ظاهر^(١).

وزاد عبد القاهر البغدادي إجراء الأحكام عليه وتسميته كافراً لقيامه بما يخالف الشريعة الظاهرة ويوافق به في الظاهر أعمال أهل الكفر؛ فقال في أصول الدين: (قال أصحابنا: إن أكل الخنزير من غير ضرورة ولا خوف، وإظهار زي الكفرة في بلاد المسلمين من إكراه عليه، والسجود للشمس أو للصنم، وما جرى مجرى ذلك من علامات الكفر وإن لم يكن في نفسه كفراً إذا لم يضامه عقد القلب على الكفر، ومن فعل شيئاً من ذلك أجرينا عليه حكم أهل الكفر وإن لم نعلم كفره باطناً)^(٢).

لكن الغزالي جعل السجود للصنم وهو من الأفعال كفراً إذا خلا من موانع الجهل وعوارض الإغذار؛ فقال في الاقتصاد في الاعتقاد: (فإن قيل: السجود بين يدي الصنم كفر وهو فعل مجرد لا يدخل تحت هذه الروابط، فهل هو أصل آخر؟

قلنا: لا، فإن الكفر في اعتقاده تعظيم الصنم وذلك تكذيب لرسول الله ﷺ والقرآن، ولكن يعرف اعتقاده تعظيم الصنم تارة تصريح لفظه، وتارة بالإشارة إن كان أخرس، وتارة بفعل يدل عليه دلالة قاطعة كالسجود حيث لا يحتمل أن يكون السجود لله وإنما

(١) (٣/٥٤٦).

(٢) (٢٩٠).

للصنم بين يديه كالحائط وهو غافل عنه أو غير معتقد تعظيمه وذلك يعرف بالقرائن^(١). وعليه فقد جعل من الأعمال ما يرجع إلى عقد القلب على ذلك الفعل، ومنه ما يُعدُّ كفراً بذاته إذا خلا من موانعه، وهذا يخالف من عدَّ الكفر مجرد الجهل بالله تعالى. بل وزاد أبو البقاء الكفوي رداً على من قال أن الكفر هو التكذيب؛ فقال في الكليات: (ومن قال: الإيمان هو التصديق بالقلب بالله وبما جاء به رسله قال: الكفر هو التكذيب بشيء مما جاء به الرسول، وهذا هو اختيار الإمام الغزالي عليه الرحمة. وهو باطل بمن ليس بمصدق ولا بمكذب بشيء مما جاء به الرسول، فإنه كافر بالإجماع وليس بمكذب. ويبطل أيضاً بأطفال الكفار ومجانينهم، فإنهم كفار وليسوا بمصدقين ولا بمكذبين)^(٢).

وقال الصفي الهندي كما في التسعينية: (أمّا حدُّ الكفر، فقد قال القاضي أبو بكر: إنه الجحدُّ بالله تعالى، وفسرُهُ تارةً بالجهل وتارةً بأنه يتضمَّنُ الجهل، وهو باطل؛ لأنه إن أراد به الجهل بوجوده لم ينعكس، وإن أراد به الجهل بذاته أو بصفة من صفاته لم يطرُد؛ لأنَّ أصحابنا اختلفوا في كثير من صفات الله تعالى، ولا شك أن الحقَّ في ذلك واحد، والمخالف له يكون جاهلاً بتلك الصفة، فيلزمنا تكفير أصحابنا. ولا ينعكس، لأنَّ العارف بالله تعالى وصفاته إذا أنكر نبوة النبي ﷺ أو أنكر شيئاً من القرآن أو من أركان الدين فهو كافر).

وأصحُّ ما قيل في حده ما قاله الشيخ الغزالي رحمه الله: وهو تكذيبُ الرسول في شيء ممَّا جاء به).

وقال سيف الدين الآمدي في أبحار الأفكار: (وأمّا الكفر في اصطلاح المتكلمين: فقد اختلفوا فيه على حسب اختلافهم في الإيمان، فمن قال الإيمان بالله هو معرفته قال: الكفر هو الجهل بالله تعالى. وهو غيرُ منعكسٍ على المحدود، وشرط الحدُّ أن يكون مطَّرداً منعكساً؛ حتى لا يكون الحدُّ أعمَّ من المحدود، ولا المحدود أعمَّ من الحد كما سبق تعريفه.

(١) (٢١٤).

(٢) (١٢١٩/١) وهذا قول الآمدي في أبحار الأفكار (٢٧/٥ - ٢٨).

وبيان أنه غير منعكس: أن جحد الرسالة، وسب الرسول، والسجود للصنم، وإلقاء المصحف في القاذورات كفر بالإجماع، وليس هو جهلاً بالله تعالى؛ فإنه قد يصدر ذلك من العارف بالله تعالى والجاهل بالدلالة على العلم، بامتناع هذه الأمور، أو مع المعرفة بها؛ فلا يكون فعل هذه الأمور دالاً على الجهل بالله تعالى^(١).

وقال الغزالي في الاقتصاد: (الباب الرابع: بيان من يجب تكفيره من الفرق. اعلم: أن للفرق في هذا مبالغات وتعصبات، فربما انتهى بعض الطوائف إلى تكفير كل فرقة سوى الفرقة التي يُعزى إليها، فإذا أردت أن تعرف سبيل الحق فيه فاعلم قبل كل شيء أن هذه مسألة فقهية، أعني: الحكم بتكفير من قال قولاً وتعاطى فعلاً، فإنها تارة تكون معلومة بأدلة سمعية، وتارة تكون مظنونة بالاجتهاد، ولا مجال لدليل العقل فيها البتة).

ثم يقول بعدها: (والأصل المقطوع به: أن كل من كذب محمداً ﷺ فهو كافر أي مخلد في النار بعد الموت، ومستباح الدم والمال في الحياة، إلى جملة الأحكام. إلا أن التكذيب على مراتب).

ثم يذكر في الرتبة الرابعة: (المعتزلة والمشبهة والفرق كلها سوى الفلاسفة، وهم الذين يصدقون ولا يجوزون الكذب لمصلحة وغير مصلحة، ولا يشتغلون بالتعليل

(١) قال أبو البقاء الكفوي في الكليات تحت مادة (كفر):

واختلف المتكلمون في الكفر على حسب اختلافهم في الإيمان؛ فمن قال الإيمان بالله هو معرفته قال: الكفر هو الجهل بالله، وهو غير منعكس على المحدود، فإن جحد الرسالة، وسب الرسول، والسجود للصنم، وإلقاء المصحف في القاذورات كفر بالإجماع، وليس هذا جهلاً بالله إذ قد يصدر ذلك من العارف بالله الجاهل بالدلالة على العلم بامتناع هذه الأمور أو بالمعرفة بها.

ومن قال: الإيمان هو الطاعات كالمعتزلة وبعض الخوارج قال: الكفر هو المعصية، لكن قالت الخوارج كل معصية كفر، والمعتزلة قسموا المعاصي إلى معصية هي كفر: وهي كل معصية تدل على الجهل بالله كسب الرسول، وإلقاء المصحف في القاذورات، وإلى معصية لا توجب انتصاف فاعلها بالكفر ولا بالفسوق ولا يمتنع معها الانتصاف بالإيمان كالسفه، وكشف العورة، إلى غير ذلك وإلى معصية توجب الخروج من الإيمان ولا توجب الانتصاف بالكفر بل بالفسوق والفجور كالقتل العمد، والعدوان، والزنا، وشرب الخمر ونحوه، وطريق الرد على هؤلاء إنما هو بيان أن كل معصية لا تدل على تكذيب الرسول فيها جاء به فإنها لا تكون كفراً).

لمصلحة الكذب بل بالتأويل ولكنهم مخطئون في التأويل، فهؤلاء أمرهم في محل الاجتهاد. والذي ينبغي أن يميل المحصل إليه الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلاً؛ فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم. وقد قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها».

وهذه الفرق منقسمون إلى مسرفين وغلاة، وإلى مقتصدين بالإضافة إليهم، ثم المجتهد يرى تكفيرهم وقد يكون ظنه في بعض المسائل وعلى بعض الفرق أظهر.

وتفصيل آحاد تلك المسائل يطول ثم يثير الفتن والأحقاد، فإن أكثر الخائضين في هذا إنما يحركهم التعصب واتباع تكفير المكذب للرسول، وهؤلاء ليسوا مكذبين أصلاً، ولم يثبت لنا أن الخطأ في التأويل موجب للتكفير، فلا بد من دليل عليه، وثبت أن العصمة مستفادة من قول لا إله إلا الله قطعاً، فلا يدفع ذلك إلا بقاطع.

وهذا القدر كافٍ في التنبيه على أن إسراف من بالغ في التكفير ليس عن برهان؛ فإن البرهان إما أصل أو قياس على أصل، والأصل هو التكذيب الصريح ومن ليس بمكذب فليس في معنى الكذب أصلاً، فيبقى تحت عموم العصمة بكلمة الشهادة^(١).

وقال في شرح السنوسية: (فالشك والظن والوهم لا تكفي في العقائد بل هي كفر)^(٢).

وقال البيجوري في تحفة المريد: (اعلم أن معتقد الجهة لا يكفر كما قاله العز بن عبد السلام، وقيد النووي بكونه من العامة، وابن أبي جمرة بعسر فهم نفيها، وفصل بعضهم فقال: إن اعتقد جهة العلو لم يكفر، لأن جهة العلو فيها شرف ورفعة في الجملة، وإن اعتقد جهة السفلى كفر، لأن جهة السفلى فيها خسة ودناءة)^(٣).

(١) (٣٠٢).

(٢) (٣٠).

(٣) (١٦٥).

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

لقد انتهى الجزء الأول من كتاب الأشعرية في ميزان الأشاعرة.

وتبين لكل ذي لب أن مذهب الأشاعرة لا يمكن أن يكون منهجاً ربانياً ولا وحيّاً إلهياً ولا طريقة نبوية؛ بل هو رأي شخصي واجتهاد بشري؛ حتى أن أتباع المذهب لم يرضوا بكثير من أصوله وتأصيله، ناهيك عن تفرعاته وتطبيقاته؛ بل وتباينت أقوالهم وتطبيقاتهم وتأصيلاتهم في المسألة الواحدة في كثير من المواضع؛ كما مر معك في هذا الكتاب.

وإن كنا نعلم أن هذه المفارقات والتباينات أفضت إلى أن وافق بعض أربابها منهج أهل السنة أصحاب الحديث وطريقتهم ففاز بالحق والبعد عن مسلك المنازعة معهم، ومن بقي على حاله منهم بقي على التباين بينهم والمفارقة في مذهبهم بل وارتج عليهم سبيل الوصول للحق ومسلكه فبقوا في حيرة القيل والقال وجمع ما لا طائل تحته من المخصصات التي لا كبير طائل تحتها.

إن من المعلوم أن كثيراً من علماء مذهب الأشاعرة يتباينون في قريبتهم من مذهب أهل الحديث والتسليم للنصوص، ومن أسباب ذلك قرب العهد بمذهب أهل السنة أو اطلاعهم عليه بعد الوقوف على أدلته، أو معرفة نصوص لم يكونوا قد وقفوا عليها، أو طول مدة بعد طول حيرة، أو تركهم لمذهب المتكلمين والفلاسفة ومن تأثر بهم، أو قال ببعض قولهم كالمعتزلة ومن أخذ درجهم من بعض منتسبي الأشعرية وغيرها.

وإني لأرجو بهذا الكتاب أن أكون سبباً في فتح عين الأعشى والقلوب المنكدرة والعقول المغلقة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس الموضوعات

الصفحة

الموضوع

٥ مقدمة الطبعة الثانية
٧ المقدمة
١٠ مصدرُ التلقي عند الأشاعرة
١٧ الأشاعرةُ والعقلُ
١٩ علمُ الكلام
٢٨ أوَّل واجب على المكلف
٣٤ قولهم في الإيمان
٤٣ زيادة الإيمان ونقصانه
٤٩ إيمان المقلد
٥٣ هل الاسم هو المسمَّى أم لا
٦٤ معنى لا إله إلا الله
٦٦ صفة الوجود والقديم
٦٩ قولهم في صفة الخالق
٧٢ صفة الوجه واليدين والعين
٧٨ قولهم في صفة الوجه لله تعالى
٨١ قولهم في صفة اليد
٨٥ قولهم في صفة الكلام
٨٥ المسألة الأولى: التدليل على صفة الكلام
٨٧ المسألة الثانية: حقيقة الكلام

المسألة الثالثة: كلام الله المسموع هل هو عبارة عن كلام الله تبارك وتعالى	أم لا؟	٨٩
المسألة الرابعة: إنزال كلام الله تعالى والقول بالعبارة		٩٣
الأشاعرة وخلق القرآن		٩٤
قولهم في أسماء الله تبارك وتعالى هل أسماء الله تبارك وتعالى توقيفية أم لا		٩٨
قولهم في استواء الله على العرش		١٠٠
من قولهم في صفة القدرة		١٠٥
قولهم في قدرة العبد		١٠٧
تكليف ما لا يطاق		١١٠
قولهم في حياة الميت في القبر		١١٨
قولهم في الكفر		١٢٢
الخاتمة		١٢٧
فهرس الموضوعات		١٢٨

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

